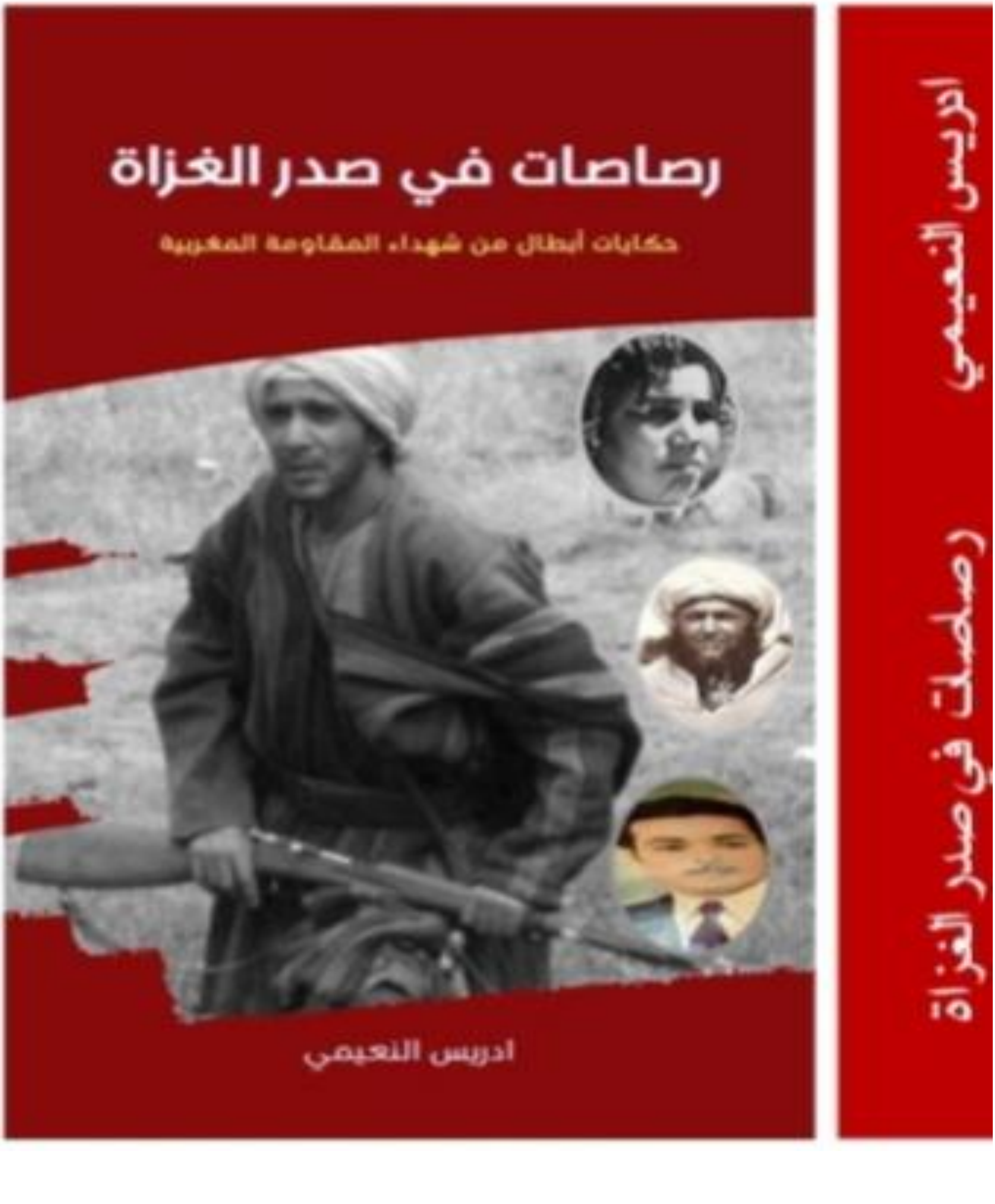
رصاصات في صدر الغزاة
حكايات أبطال من شهداء المقاومة المغربية
ادريس النعيمي
ادريس النعيمي

-الكتاب: رصاصة في صدر الغزاة

-الكاتب: إدريس النعيمي

-الطبعة: مارس_**2022**

-عدد الصفحات:**127**

-المطبعة:جوهرة العلوم-مكناس

-الإيداع: القانوني رقم **978_9920_9...6_6**

-الغلاف:ايمان راجل

اهداء:

إلى الذين سالت دمائهم...

لتروي محطة نضال من تاريخ أوطانهم.

إلى شهداء وشهيدات هذا ا لوطن...

حيث سأحكي ذكراهم.

تقديم يوسف عراض:

أعترف أنني ترددت كثيرا قبل أن أكتب هذه الأسطر لتكون تقديما لهذا العمل الجديد،ربما اعتبرها زميلي تهاونا مني ولكن لم يكن يعرف أنني كنت أنتظر حتى قراءة العمل بكل تفاصيله قبل فعل الكتابة احتراما لروح الشهداء والشهيدات من ثوار هذا الوطن ،واليوم تشرفت بنفض الغبار عن ذاكرتي التاريخية من خلال هذا الكتاب.

إن القارئ لأعمال الكاتب المغربي إدريس النعيمي يجد نفسه أمام صفحات مشرقة من تاريخ هذه البلاد،فالمؤلف يعيش كل يوم هاجس السؤال التاريخي لكونه مدرسا لمادة التاريخ والجغرافيا، فالقارئ المبتدئ قبل المتمرس يلحظ تزاوجا ماتعا بين الجغرافيا(الجبال – الأنهار – الصحراء) وبين حكايات أولئك الثوار الذي كتبوا تاريخهم بمداد من ذهب،وسطروا صفحات مشرقة من الفخر لهذا الوطن.

وإن الأحداث والملاحم لتتعاقب عبر صفحات هذا المولود الأدبي الجديد حيث تحضر بقوة الهري وبوغافر وأنوال وصاغرو،كما تحضر كذلك بطولات الفدائيين من أبطال الحركة الوطنية رجالا ونساء ملتحفين ملامح الطبيعة من سهول وجبال وأودية... والذي يعرف إدريس لن يجد غرابة في ذلك،فالمؤلف احتفى بهاته المناظر الطبيعية في طفولته قبل أن تتحول إلى "قوى حبرية" تؤثث أعماله الروائية والقصصية بعد أن منحها روحا ورقية.

ولعل الجديد في هذا العمل القيم هو اسهابه في الحديث عن المرأة المغربية المقاومة واستحضار روحها الثائرة،وهي بطولات ظلت في طي النسيان في ظل مجتمع أبيسي تمنعه ذكورته من البوح بقدرة المرأة في صنع الحدث وفي رسم أمجاد المغرب المعاصر.. من قبيل عدجو موح ولالة يطو وغيرهما كثير،كل ذلك في قالب أدبي ممتع يزاوج بين الرواية المتخيلة والحقيقة التاريخية.

الدار البيضاء،**12**فبراير**2022.**

*الحكاية الأولى:

الشريف أمزيان:سيرة محارب قاوم الغزاة الإسبان

*حلم الغزاة بغزو الريف:

"إنها ليست مناجم،بل هي جبال كاملة من المعدن،جبال حمراء عظيمة ومليئة بالحديد.عمليات الاستخراج سهلة،ويكفي فقط ملئ عربات القطار:فالأرض ومنحدر الجبل،وقمته كلها معادن..كأنك أمام أشياء خرافية،أسطورية،ذات كميات لا متناهية".

عبارات موغلة في الأحلام،مغلفة بالأطماع تلك التي نطق بها "لويس دي أولمت" القائد الإسباني لما عاين عن كثب مناجم بويفرن بجبال الريف المغربية،كلمات عكست بما لا يدع مجالا للشك كيف كانت إسبانيا تحلم ب"أولدورادو جديد" بالريف،بعد أن فقدت آخر مستعمراتها بالعالم الجديد أواخر القرن التاسع عشر تحت ضربات الأمريكيين بكوبا والفلبين.

كان الغزاة الإسبان قد استقروا بالريف منذ قرون،لما وطئت جيوشهم أرض مليلة منذ العام **1497** للميلاد،ثم استولوا على صخرة باديس في العام **1564**م،لكنهم لم يستمروا في التوسع أبعد من ذلك،بعدما تصدت لهم القبائل المجاورة كلما حاولوا الخروج وراء تلك الأسوار المنيعة التي شيدوها بالثغور المحتلة.

عديدة هي المحاولات التي قام بها المخزن المغربي قصد طرد الاسبان واسترجاع المدن السليبة،لكن جيوشهم كانت تعود في النهاية إلى العاصمة بخيبة العجز أمام قوة الحصون التي شيدها الغزاة،وسرعة النجدة التي تأتي من إسبانيا عبر البحر المتوسط.ولما أحس الاسبان أن قبضة الدولة المغربية قد تراخت،وجيوشها بإيسلي قد هزمت،تجرأت لأول مرة على الخروج بجيشها خارج جيوبها المحصنة،بل واحتلت تطوان في العام **1860**م بعد حرب طاحنة مع قبيلة قلعية المناضلة،تلك القبيلة التي وجدت نفسها أمام جيوش جرارة،حديثة التسليح،مقابل غياب أي سند من المخزن الذي بدا أن إيسلي قد أصابته في مقتل.

بعدها عاد الغزاة إلى مليلة تاركين تطوان بعد صلح مهين أفرغ خزينة المغرب،وكشف للطامعين عن ضعف مبين،وما لبث الاسبان أن عقدوا عدة اتفاقيات مع جيرانهم الأوربيين،إنجليز وفرنسيين حتى يضعوا أقدامهم على كل الريف دون منافس ينازعهم السلطة على تلك البلاد التي طمعوا فيها أكثر من أي وقت مضى.

-تمرد الروكي الزرهوني والتواطئ مع الغزاة:

وقد استغل الاسبان وفاة السلطان القوي"المولى الحسن الأول" في العام **1894**م،لينشروا الفوضى ويدعموا الاضطرابات حتى يتنسى لهم السيطرة على المناجم التي أسالت لعاب الرأسماليين منهم وشركات التعدين،لذا دعموا بكل الوسائل الممكنة ثورة "الجيلالي الزرهوني الملقب ببوحمارة" هذا الروكي الذي لم يتمكن لا المولى عبد العزيز ولا المولى عبد الحفيظ من القضاء عليه بعد أن نازعهم الشرف حينما ادعى أنه المولى امحمد ابن السلطان الحسن،وأنه طالب للحق وساعي للعرش المستحق.

ولم تتأخر إسبانيا في عقد اتفاقيات مع هذا المتمرد على المخزن،ففي السابع من يوليون من العام **1907** عقدت اتفاقية بين الطرفين،بموجبها أعطى الروكي للاسبان "حق استغلال مناجم "ويكان "الغنية بالحديد ..كانت إسبانيا في حاجة إلى مثل هاته الاتفاقيات حتى تظهر للأوربيين أنها تتصرف وفق بنود مؤتمر الخزيرات.

في هذا السياق المشحون بالدسائس والأطماع تأسست أولى الشركات الاسبانية قصد استغلال هاته الخيرات التي نزلت عليهم فجأة،كانت تلك الشركة قد أطلقت على نفسها"الشركة الاسبانية لمناجم الريف" التي شرعت في التنقيب واستخراج الحديد الخام بموجب الاتفاق الذي قدمه لها

الزرهوني والذي خول لها حق الاستغلال لمدة **99** سنة قادمة،مقابل **650000** بسيطة عربون تواطئه.

غير أن أهل الريف الأحرار لم يكونوا ليرضوا بتسليم وطنهم للأجنبي المستعمر،وسرعان ما ثارت القبائل التي كانت في البداية مفتونة بحركة الروكي الذي جاءها من وجدة حاملا مشعل"طرد الغزاة" لينكشف لهم غطاءه الخادع،وإنما قدم ليتقاسم مع الاسبان ما يزخر به الريف من ثروات.

-ظهور بطل الريف الأول محمد أمزيان:

أفرزت التحرشات الاسبانية على خيرات جبال الريف المغربية ظهور بطلنا سيدي محمد أمزيان،شريف إدريسي حسني،هو أحد أبناء أحمد عبد السلام الريفي،ولد في العام **1859**م بقبيلة قلعية،كبر وشب في زاوية والده"ازغنغان" فتربى على الفضائل والفروسية،ومعاداة الغزاة الاسبان،كما سافر إلى فاس حيث درس في جامعة القرويين الشهيرة،ليجمع بين العلم والشرف والفروسية،وهكذا اجتمع في الشريف أمزيان ما تفرق في غيره.

أدرك الشريف أمزيان أن عليه أولا أن يحارب الجيلالي الفتان،قبل أن يحارب الاسبان،فبدأ مشروعه الجهادي بسلسلة لقاءات طويلة مع زعماء القبائل الريفية قصد جمع الكلمة وتوحيد الصفوف،فسارع المجاهد الإدريسي إلى التنسيق مع محلة المخزن التي قدمت للقضاء على الزرهوني الثائر،كان ذاك على الأرجح في العام **1903**م،وطيلة خمس سنوات ظل الفقيه أمزيان يبطل ادعاءات الروكي في النسب الملكي.

سيدرك الشريف أمزيان برجاحة عقله وخبرته أن المحلة السلطانية هي أعجز من أن تقضي على خطر الروكي،فسارع إلى وضع مشروعه الجهادي بمبادرات فردية وشعبية،تلك المبادرة التي وجدت لها صدى حاسم في نفوس أهل الريف لما انتشر خبر تنازل الروكي عن المناجم،ذاك الخبر الذي انتشر في صفوف أهل الريف انتشار النار في الهشيم،فاستطاع أمزيان بفضل مكانته الدينية الموقرة لدى الأهالي في ضم قلعية قبيلته وقبيلة بني ورياغل القوية إلى حركته.

ولسرعة ما استشعر بوحمارة الخطر المحدق به،وبالخصوص لما احتج عليه الاسبان بعد تعرقل عمليات استخراج المعادن وتشييد خط السكة الحديدية،فأرسل قائده ذو الصيت السيئ"مول الوضوء" قصد الاثخان في بني ورياغل المنقلبين عليه حسب زعمه،هذا القائد الرهيب الذي ارتكب

أبشـع المجـازر فـي حـق بنـي تـوزين وهـو فـي طريقـه نحـو بنـي ورياغل،فكانت تلك أولى المعارك التي سيخوضها الشريف أمزيان ضد هذا الفتان.
كان النصر حليف المجاهد أمزيان في تلك المعركة التي سميت"معركة وادي النكور" في ربيع **1908**م،وفي أكتوبر من نفس السنة ثارت قلعية القوية على جباة الزرهوني وطردتهم من سوق بني سيدال،لتحتشد القبائل الخمسة عشر بمعية قائدها الشريف أمزيان على مرتفعات "سلوان" تلك القلعة التي جعلها الروكي عاصمة لسلطته ومقرا لحكمه.
وما بين **16** إلى **21** من أكتوبر من العام **1908**م،عقد لقاء مطول بين المجاهدين بسوق جزولة تحت زعامة الشريف أمزيان والمرابط أخمليش،وهو اللقاء الذي سيشكل بداية النهاية لثورة بوحمارة بعد أن فقد قصبته سلوان،ومعها فقد الأمان الذي كان يغدقه عليه أسياده الاسبان،وما هي إلا أشهر حتى سقطت سلوان في الخامس من دجنبر من نفس العام،بعدها سيشتد الخناق على الروكي،لتتم مطاردته بين جبال الريف حتى القبض عليه في **21** غشت من العام **1909**م.
-جبهة ثانية ضد الغزاة:
لما انتهى خطر الروكي بالريف،وخمدت ثورته التي أفرغت خزينة البلاد،وتسببت في مقتل الكثير من العباد،بل وفي عزل السلطان عبد العزيز وتولية عبد الحفيظ،تفرغ الشريف الريفي إلى الاسبان،وكان هؤلاء قد أدركوا أن اتفاقيتهم مع الروكي قد أضحت في كف عفريت،لذا سارعوا إلى مساومة الشريف أمزيان "زعيم الريف حينها بلا منازع"،غير أن الفارس الشهم لم يكن ليساوم على وطنه.
فقد قطع الشريف أمزيان مع أطماع الاسبان،وأخبرهم أن الاتفاق حول استغلال المعادن هو من اختصاص السلطان،وأن المجاهدين ما هم سوى حراس أمناء على البلاد والعباد،كانت تلك ضربة قاصمة للرأسماليين الاسبان،هذا ما جاء على لسان حاكم مليلة حينها "خوسي مارينا" وهو يتحدث بحسرة وحنق عن زعيم الريف الجديد:"يوجد زمام القيادة الرئيسية للثوار بيد شريف يحظى بين أهل الريف بتقدير كبير وشهرة لا حدود لها،لكونه مقدم الزاوية التي أسسها جده الرابع بأزغنغان".
في صيف **1909**م تحركت الجيوش الاسبانية لحماية مناجم الحديد والنحاس التي كانت تستغلها بموجب الاتفاق السابق،فرد الشريف أمزيان

على ذلك الزحف بإعلان الجهاد وعقد اجتماع مع زعماء القبائل في تافرسيت،ليتم شل حركة الغزاة في عين المكان.
طيلة ثلاث سنوات قادمة سيسطر التاريخ ملاحما بطولية خالدة لبطل الريف الأول،وستشكل مقاومته للاسبان علامة فارقة في سيرة المقاومة المغربية،إنه قائد فذ،ومجاهد كريم،لم يساوم على وطنه ودينه،وقد كبد الغزاة خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد،وأرهق قواتهم،وأرعب جنودهم،وقض مضجعهم حتى آخر نفس.

-ملحمة "وجار الذئب" قصة بطولة سطرها أمزيان:

تحكي كتب التاريخ أن الشريف أمزيان خاض معاركا طويلة،وحروبا داميا مع الجيوش الاسبانية،لا يتسع المقام هنا لذكر كل تفاصيلها،لكن باسترجاع بعض المحطات الخالدة من سيرة هذا الفارس المجاهد يتضح أننا أما بطل ظل يقاتل حتى استنفذ كل سبل النجاة،ولعل أهم المعارك هي كالتالي:
-معركة مليلة: في التاسع من يوليوز من العام **1909**م،دشن أمزيان معاركه مع الاسبان،بعدما تصدى المجاهدون لجيش الغزاة الزاحف من مليلة المحتلة بتعداد تجاوز **2500** جندي،و**8000** احتياطي،وألحقوا به خسائر فادحة قبل أن يقرر الاسبان التراجع لحين.
-معركة وادي الذئب: وقعت في السابع والعشرين من يوليوز **1909**م،وفيها الشريف أمزيان جبروت الغزاة الاسبان،وألحق بهم هزيمة ما كانت في الحسبان،انقض المجاهدون كصقور من أعلى جبال الريف الشماء،وكسروا شوكة العدو وخدشوا له كل كبرياء،فاق النصر كل التوقعات،وغرقت اسبانيا بعد ها الكارثة في شر الويلات،عمت المظاهرات كل اسبانيا وأضحى "الأسبوع الدامي" علامة فارقة على ضعف الغزاة.. في ها المعركة الخالدة سيسقط الجنرال"بينطوس" أحد قادة الاسبان صريعا في ميدانها،بل وسيخر ألف جندي ميتا،وألفان ما بين مفقود وجريح.
بعد وجار الذئب أدرك الغزاة أنه لا سبيل لهم للسيطرة على الريف ومناجمه بالقوة العسكرية،وأدرك منظرو الاستعمار أن الاحتلال وحده غير كاف،كما علموا يقينا أن استمرار هذا القائد الشهم على رأس الزعامة بالريف يستحيل معه أن يحققوا شيئا على أرض الواقع، لذا ستعمل اسبانيا في اتجاهين:

-الاتجاه الأول :أن تستمر في ارسال حاميات عسكرية متفرقة تشتت بها قواة الشريف أمزيان،وتشغله عن خطتها الخبيثة التي تحضر لها على مهل،غير أن القائد الشجاع الذي لايعرف قلبه الضعف ولا الاستكانة سيكبد هاته الحاميات عديد الهزائم في "وادي كرت" انتصر فيها المجاهدون،وتقهقرت فيها القواة الاسبانية إلى حدود مليلة.
-الاتجاه الثاني: وهو أسلوب الإغراء المادي الذي انتهجته إسبانيا وكان فعالا للغاية،حيث عملت على استمالة الأهالي بالأموال والامتيازات،فعكرت النفوس،وثبطت الهمم،وكثيرا ما كان المال وسيلة للتدمير يعجز عنها الحسام،وقد استطاع الغزاة حينها أن يؤسسوا"الريكولاريس" وهي فرق عسكرية مكونة من الأهالي الذين انضموا للاسبان،وخرجوا عن ثورة أمزيان،هؤلاء الجبناء الذين تحالفوا مع العدو على بني وطنهم استطاعوا التقدم منذ حلول العام **1912**م في كافة جبهات القتال،وأهمها احتلال جبل العروي ذو الموقع الاستراتيجي.

نيابة الناضورخلدت ذكرى الشريف أمزيان بمؤسسة تحمل اسمه.

-الفارس أمزيان،صريعا في ساحة الميدان:

تلك حكاية أخرى ستظل تروى للأجيال على مر السنين،قصة استشهاد البطل الشريف أمزيان ..إنها ملحمة تعبر حقيقة عن نفسية هذا القائد الشجاع،ورفضه القاطع لكل إغراء ومتاع،وتبدأ تلك الحكاية لما قصد الشريف أمزيان بني سيدال في مايو من العام **1912**م لما شعر بتخاذل القبائل وتعاونهم المهين مع المحتل.

في صبيحة **14** مايو من نفس السنة تحرك جيش اسباني يقوده الجنرال "غارسيا ألداف" نحو عزيب حدو،معززة بفرق من المدفعية ووحدات

الريكولاريس المجندة،فتصدى لها الشريف أمزيان برفقة مجاهدين كانوا معه،لا يزيد عددهم عن السبعمائة،بقلوب مصرة على الجهاد،وعزائم ثابتة على المقاومة حتى ولو أن الخذلان ترك في النفوس أثر لا يزيله تعاقب الأيام.

ولندع الحاج العربي الورياشي يصف لنا ظروف استشهاد القائد أمزيان في كتابه"الكشف والبيان عن سيرة بطل الريف الأول سيدي محمد امزيان":

-"..خرج الشريف سيدي محمد أمزيان في نحو سبعمائة من المجاهدين قاصدا ..مسجد بالمدشر المسمى :حجرة علي" قرب كدية حامد وهذا المدشر من المداشر التي كانت تحت النفوذ الاسباني...بيد أن الإسبان كانت لهم عيون لا تنام،وجواسيس لا يغفلون،لا شأن لهم إلا تتبع حركة الشريف وإحصاء عدد من يرافقه من المجاهدين...ثم إن الشريف بات في ذلك المسجد...أما الجواسيس فقد طيروا الخبر لمن يهمه..وجيش المجاهدين غافل عما حدث،فاجتمعت الجيوش الاسبانية في كل جهة وقصدت حجرة علي فأحاطوا ليلا بالمكان،فتفطن الشريف ومن معه لما حدث".

أما الحاج سلام اليعقوبي أحد مرافقي الشريف أمزيان فيتحدث عن ذلك الحدث بحسرة بالغة على فقد رفيق السلاح:

-"رأيت الشريف يجول على فرسه ومعه نحو عشرة من الفرسان،وسمعته ينادي من ظهر له من البوليس الريفي(الريكولاريس) الذين جاء بهم الاسبان وهو يقول:"جئتم لقتل إخوانكم بخمسة عشر ريال في الشهر" ؟؟

يكمل الحاج سلام:" كنا مختفين في موضع ننظر إلى الشريف وهو يجول على فرسه في المعركة يطلق النار على العدو،وبقي على تلك الحالة برهة من الزمان،وأفواه بنادق العدو ونيرانها مصوبة إليه من جميع الجهات،ورصاصها يثير غبار الأرض أمامه وخلفه وبجانبه،وهو لا يبالي يقفز بفرسه من مكان لآخر،فإذا بنا نراه يسقط عن فرسه...وموضع مصرعه أسفل كدية حامد بموضع يسمى فدان الحيان".

-أية شجاعة كنت تمتلكها يا زعيم المجاهدين؟

-وأية ميتتة نبيلة ختمت بها حياتك الرائعة؟

إننا لننحني احتراما لجسد هذا البطل النادر،وهذا النسر الطائر،والفارس المغامر،كيف لا،والشريف أمزيان بدا كفارس من عصور ماضية حينما

كان للفروسية معنى،وحيث لا تجد كلمة"استسلام" في قاموس هؤلاء الفرسان،ولا موت إلا على صهوة الجواد،وفوق أرض النزال والطعان.
إننا والحقيقة لم نجد كل ذلك غريبا على الشريف أمزيان،فما حياته وجهاده واستشهاده إلا استرجاع للماضي،ولكأن التاريخ يعيد نفسه في قصة سيدي محمد أمزيان،ذلك حينما نسترجع ذكرى حكاية مشابهة تماما كانت قد وقعت في سالف الأزمان،إنها قصة استرجاع ومحاكاة لأحد أجداد هذا الشريف العلوي،فهاته الحكاية تكاد تتطابق مع حكاية "الحسين بن علي سيد الشهداء"..لا اختلاف بينهما إلا في اختلاف المكان و فارق الزمان.
أنظر يا سيدي لأوجه التشابه بين الجد والحفيد،لتدرك أن الأسود لا تلد إلا أشبالا ترفض الضيم،وتواجه الموت في شجاعة نادرة:
-حارب الإمام الحسين لوحده جيش بني أمية بكل جبروته وقوته،وكذلك فعل الشريف أمزيان حينما واجه لوحده غطرسة الجيش الإسباني المتفوق عددا وعتادا.
-تخاذل عن الحسين الكثير من أتباعه،ووجد نفسه يواجه في كربلاء قوة الأمويين التي أحاطت بمعسكره إحاطة السور بالمعصم،وكذلك ارتمى الكثير من أهالي قلعية في أحضان الاسبان،لما أغدقوا عليهم بالمال،ووجد أمزيان شرذمة من أتباعه المخلصين يقاتلون معه حتى آخر رمق في حياتهم المجيدة.
-رفض الحسين كل المساومات التي أرسلها له يزيد بن معاوية،وفضل ثواب الآخرة على عرض الدنيا،وكذلك كان حفيده الشريف أمزيان،حينما رفض مغريات الاسبان باعتراف قادتهم،واستشهد كما جده في أرض المعركة،طاهرا نقيا تقيا.
-حاصر جيش الطاغية شمر بن ذي الجوشن الحسين من كل اتجاه،وتوالت على حفيد الرسول الكريم النبال والرماح من كل حدب وصوب،فرفض الاستسلام وآثر الموت عزيزا كريما،وكذلك كان أمر الشريف أمزيان،فحينما حاصره الاسبان قال لأنصاره كلمته الخالدة التي ستظل ترددها جبال الريف الأبية:"كل من رغب منكم في الحياة فلينسل تحت جنح الظلام،أما أنا فلا حاجة لي في الدنيا بعد هذا اليوم،فانسلوا ولم يبقى معه إلا نحو ثلثهم،فتوضأ وصلى الفجر،ثم خرج وشرع هو ومن بقي معه في إطلاق النار على العدو".
-عبد الكريم الخطابي:كنت حاضرا هناك لما أحضرت جثة الشريف:

هكذا ترجل الفارس أخيرا عن صهوة جواده،وآن لروحه أن ترتاح بعدما سطرت بطولته أروع الحكايات،وأرعبت مقاومته الاسبان طيلة ثلاث سنين،حتى أنهم لم يصدقوا بسهولة أنهم قبضوا أخيرا على هذا الثائر الشجاع،وظلوا لأيام يسألون عن حقيقة هذا الجسد المسجى بالدماء،وهل حقا يعود إلى أمزيان ثائر الشرفاء؟؟

إنها الرواية التي ترددت على لسان عديد الضباط الاسبان الذي وقفوا على جثة أمزيان،بدا وأنهم كان يخيفهم حتى وهو مسجى بالأكفان،ثم وضعوه في عربة عسكرية وقصدوا مليلة،تلك المدينة السليبة التي استقبل فيها الأهالي الاسبان خبر مصرع الشريف أمزيان بكل مظاهر الاحتفال بعد أن استراحوا أخيرا ممن قض مضجعهم،وغيب النوم عن عيونهم.

في مليلة أقيم موكب احتفالي على شرف جثة الشريف أمزيان،وطيف به في أحياء المدينة،بينما كان الضباط الاسبان يستعرضون أوسمتهم،وهم يسرون خجلا في أنفسهم أن هذا القائد هزمهم في كثير من المعارك،ولم يتمكنوا منه إلا بعد اللجوء إلى المكر والخديعة والجاسوسية، كان هطا لسان حال قادة جيوشهم،أما أولي الضمير منهم –وهم قليل-فقد اعترفوا على مضض بشهادات لا شك أنها ستظل وساما تتوج به روح فقيد الريف ابن زاوية ازغنغان،سيدي محمد الشريف أمزيان.

اسمع ما قاله أحد ضباطهم الذي نسي اسمه وإن احتفظ التاريخ بشهادته،وأفض الشهادات ما جاءت على لسان عدوك:"رئيس الحركة في سن الخمسين،وهو يتكلم لغتنا دو الاحتياج إلى الكتابة بها..لرفض الاتصال بالاسبان وقبول هداياهم رفضا كليا،وكم من الرات حاولوا الاتصال معه بواسطة خدامهم المغاربة الذي أكدوا أن "أمزيان" ...كل أمله أن ينال الشهادة أثناء محارتهم".

انتهى كلام الضابط المعترف بشهامة خصمه،ومع شهادته تلك نال الشريف أمزيان ما كان يتمناه"أن يموت شهيدا مدافعا عن وطنه"...فسجل التاريخ حكايته تلك بأحرف من ذهب،وبمداد من فخر يتوارثه أهل الريف كابرا عن كابر.

وحتى لما استشهد الشريف وضعفت عزيمة المجاهدين،حتى صرح أحدهم قائلا"لقد خلف سيدي محمد أمزيان المجاهدين كقطيع بلا راع".

غير أن شعلة المقاومة التي أنارها الشريف المجاهد لم ولن تتوقف باستشهاده،فهذا رفيق دربه "محمد بن حدو العزوزي" الذي ظل يحمل

راية الجهاد إلى أن اغتالته يد خائن يسمى"موح حدو" في بني بوعياش سنة **1915**م،بتدبير من حاكم نكور.
وحده القاضي عبد الكريم الخطابي كان حاضرا هناك في مليلة،يراقب بمرارة احتفال الاسبان بجثة الشريف أمزيان،وسجل شهادته التي سينقلها ولا شك لابنه الأمير سيدي عبد الكريم،هذا الذي سيتسلم بعد سنوات مشعل "زعيم الريف الأعظم" حينما سيعلنها حربا شعواء على هؤلاء الغزاة الاسبان:
-"كنت هناك في مليلة لما مر موكب جثة الشريف أمزيان،وقد صدمت بكل تأكيد لمظاهر ابتهاج الاسبان بإخماد حركة أمزيان مما خلف في نفسي غصة".
لكن الشيخ عبد الكريم سرعان ما سيتبع وصيته لابنه الأمير محمد وهو يحثه على الثأر للشريف وكل مجاهدي الريف،قائلا:
-"وصيتي لكم أن تدافعوا عن بلادكم،لأن الاسبان أعداؤنا وأعداء الله،قد بيتوا العزم على تلويث وطننا،..إني أعرف حق المعرفة ضآلة الوسائل التي يملكها شعبنا،لكن..لا ينبغي الاستسلام قبل استهلاك ما عندنا من وسائل"
إنها الوصية التي ترددت في جبال الريف،فهبت القبائل تتوحد من جديد،ها المرة التفت نحو عائلة الخطابي التي فقدت الوالد الذي اغتاله الاسبان بالسم،لكنه كان نفسه الزمن الذي سيشرق بميلاد قائد للريف،لا شك أن شهرته وصلت أراضي أمريكا،وأقاصي الصين والفيتنام،وجل الأمم والأوطان... وباتت سيرته على طرف كل لسان.

صورة نادرة من سنة 1910 للشريف محمد أمزيان كما لم تروه من قبل وهو يتفق مع المقاومين الريفيين الأوائل للتمدد الاسباني

الحكاية الثانية:

موحى أوحمو الزياني:ذاكرة زيان الحية

-من منا لا يريد أن يذكره قومه كأفضل ما تكون الذكرى !

-ومن منا لا يحب أن يخلده وطنه كأحد رجالات التاريخ المعدودين !!

ربما كان بطل حكايتنا قد جمع بين الذاكرة والتاريخ،بين الحقيقة الثابتة التي أكدت بما لا يدع مجالا للشك أن قائد زيان هذا كان شخصية صلبة لا تلين،وبين الأسطورة الخالدة التي ارتقى لها موحى أوحمو أمحزون في الذاكرة الزيانية التي جعلت من زعيم معركة "لهري" بطل لا يقل شأنا عن أبطال الملاحم والحكايات الشعبية الشهيرة.

لا تكاد تذكر المقاومة المغربية إلا و اسم موحى كعلم شامخ على رؤوس المجاهدين،ولا يتم الحديث عن شهداء المقاومة المسلحة إلا ويأتي في المقدمة قائد زيان وبطل "لهري الخالدة"،وإليكم الحكاية:

-موحى أوحمو الزياني:أمغار لا يشق له غبار.

إن موحى الزياني،واسمه موحمد بن حمو بن عقى أمحزون،يعود نسبه لقبائل زيان التي اشتهرت بقوة مراسها،وسيطرتها على مناطق واسعة من الأطلس المتوسط،ولد على الأرجح في العام **1857**م،عهد السلطان العلوي عبد الرحمن بن هشام،وهو ينتمي لعائلة مخزنية ذات سلطة وسيادة،فوالده

حمو بن عقا كان زعيما لقبيلة آيت حركات بمنطقة البرج على مشارف نهر أم الربيع.

شب الفتى موحى والذي وصف بأنه كان"متوسط القامة،مشربا بحمرة،كريم المائدة،شجاعا مقداما."عند التقاء جبال الأطلس بمقدمة الهضبة الوسطى،هاته الحدود التي يفصل بينها نهر أم الربيع،هذا النهر المنساب بمياهه الصافية وعيونه العذبة من منابع مجهولة في أعالي الجبال التي يكسوها خط الثلج الدائم..ولسرعة ما كان الفتى يرمي بجسده في مياه الوادي،لا تعجزه درجة المياه الباردة،ولا يحد من عزيمته قوة التيار المتسارع الذي كان عادة يخفف من قوة جريانه في ثنية البرج حيث أنشئت القلعة المشيدة بالطوب المشذب والتي كانت مسكنا للفتى الزياني.

هكذا شب موحى مروضا للطبيعة،يرافق والده في رحلات الصيد لوحيش المنطقة الذي اشتهرت به،كما اشتهرت به ضفاف نهر أم الربيع،وهناك تفتقت موهبته في دقة الرمي،وتوطدت علاقته مع بندقية الصيد والتي أتقن استخدام زنادها ولم يبلغ عقده الثاني بعد،أما ركوب الخيل فقد كان يجيد امتطائها بدون سروج،بل وكثيرا ما سابق أقرانه وهو على صهوتها،حتى أضحى فارسا القبيلة وراميها الذي لا يخطئ له سهم،ولا تضيع منه طلقة سدى.كانت ملامح النباهة والشجاعة متلازمة للفتى موحى،هذا ما كان يردده زوار والده من كبار أعيان القبائل ورؤسائها،وذلك ما سيتأكد بعد أن بلغ فتى زيان العشرين من عمره الحافل بالأحداث.

-موحى أمغارا لزيان:

في العشرين من عمره رماه القدر بصفته التي ستلازمه حتى نهايته،ألا وهي "القيادة" وكأنما خلق للإمارة وخلقت له،فبعد وفاة مفاجئة لأخيه سعيد بن عقا عين موحى قائدا لزيان **1887** إثر هجوم قبائل إشقيرن على قلعة البرج،غير أن قبائلا عديدة من زيان لم ترضى بالفتى "أمغارا" وهو أعلى لقب يطلق على سادات القبائل وكبرائها،لذا سرعان ما أعلنت بعضها العصيان ضده،لكنه استطاع بشدة بأسه ودهائه أن يفرض عليهم الأمر الواقع

بعد أن أعلن عزمه على اكتساب صفة الشرعية من سلطان المملكة الشريفة.

وبعد أن فك الشتاء قبضته الحديدية على جبال الأطلس،وبدأت تتلاشى تدريجيا تلك الثلوج البيضاء التي غطت جبال وسفوح المنطقة،وانكشفت أخيرا المسالك بعد انحسار المياه التي تفرض سطوتها على زيان في هكذا وقت،كان على الأمغار الشاب أن يرتدي برنسه الأبيض المعد من صوف متين،وأن يرتدي قلنسوته المشرقية التي ورثها عن أجداده،وأن يتشح بخنجره الصغير والذي يكاد لا يفارقه،ثم أمر بأجود خيله فامتطاه،واختار خيرة رجاله فأمر بأن يصحبوه في رحلته نحو قصر السلطان بفاس.

وبعد يومين ونصف اليوم كانت جماعة موحى تدخل أبواب فاس من جهته الجنوبية،وما لبث أعوان السلطة أن تعرفوا على الأمغار الشاب وعرفوا وجهته فرتبوا له موعدا مع السلطان العلوي المولى الحسن،هذا السلطان الذي كان الفتى الأمازيغي معجبا به أشد الإعجاب،وبالخصوص لما أشيع عنه أنه:

-"السلطان الذي عرشه على صهوة جواده".

كان مثلا شائعا في سهول المغرب وهضابه،بل وحتى في أعالي الجبال،يقولون أن هذا السلطان لا يستقر بقصر ولا يحلو له القيام بمدينة،وما إن يقصد وجهة حتى يغادرها إلى ما سواها،كانت "حرْكاته" تكاد لا تنتهي،لذا فقد وجد موحى أوحمو قدوته في سيرة السلطان،وبدا من خلال اللقاء الأول بينهما أن الإعجاب متبادل،وأن المولى الحسن أعجب هو كذلك بعزيمة الأمغار الزياني بعد أن خمن فيه الرجل الذي يعول عليه في ذلك الوقت الذي اتسم بالاضطرابات وعديد الفوضى التي تتسبب فيها هجمات القبائل على بعضها البعض،الشيء الذي أرهق الجيش السلطاني كثيرا،وحال بينه وبين تقوية صفوفه أمام خطر التسرب الأوربي الذي بدا أنه لا يحول بينه وبين اجتياح البلاد بالكامل سوى وجود سلطان مهيب الجانب كالمولى الحسن الأول.

ولسرعة ما اقتنع السلطان بكلام أمغار زيان،فأقره قائدا على كل المنطقة،بل وزوده بجيش مخزني قوامه ثلاثمائة فارس،ومن الأسلحة الكثير،وحمل معه ثلاثة مدافع ينصبها القائد حيثما شاء،بشرط ألا يستعملها إلا تحت الضرورة،ولسوف يوظفها موحى أوحمو أحسن توظيف حينما يأتي الوقت لذلك.

أطل أمغار زيان على مشارف الأطلس مدعوما بشرعيته التي اكتسبها من القصر السلطاني،ومدعما بالفرقة المخزنية التي دخلت لتوها تحت سلطانه،وما إن دخل قلعة البرج حتى باشر في تنفيذ مهمته الجديدة متخذا لذلك عدة خطوات كانت حاسمة في توطيد سيادته على كل زيان،بل معظم الأطلس المتوسط ليصبح السيد المطاع بلا منازع:

- أضحى موحى أوحمو مستشارا للسلطان في منطقة الأطلس المتوسط،وبالخصوص لما أعان القائد الزياني حرْكة السلطان لتأديب "آيت سخمان" في العام **1887**م،بل وفرض له المولى الحسن الأول مهمة تعيين قواد القبائل بعد زيارته لفاس في العام **1889**م.
- استقرار موحى أوحمو على الضفة اليسرى لنهر أم الربيع قريبا من خنيفرة رفقة أبناءه الستة عشر وزوجاته وأفراد عائلته،مفضلا حياة الخيام على البيوت المشيدة،حيث آثر حياة البدو وشظف العيش ،ومن هناك كان يصدر أوامره لأعوانه والتي كانت تصب في توحيد الصفوف والانتباه لهجمات مباغتة قد تأتي من القبائل المجاورة.

-موحى أوحمو على موعد مع المقاومة:

ظل القائد موحى مدبرا حكيما لشؤون الأطلس المتوسط،لا أمر يصدر إلا باسمه،ولا شأن يدبر إلا بمشورته،حيث استتب الأمن ودانت المنطقة للمخزن إلى أن توفي فجأة السلطان المولى الحسن في العام **1894**م،حيث دخل المغرب منعطفا خطيرا سينتهي بتوقيع الحماية الفرنسية والاسبانية بعد أن وجد النصارى في السلطان الشاب عبد العزيز فرصة لتكريس أطماعهم،فأغرقوا البلاد في الديون وفرضوا حصارا بحريا على

السواحل..وما هي إلا أن ثارت القبائل على عبد العزيز ونصبت أخيه عبد الحفيظ،هذا الذي بويع بيعة مشروطة ولم يستطع فعل شيء أكثر من توقيع معاهدة فاس في الثلاثين من مارس من العام **1912**م.

وقتها كان على القائد موحى أوحمو أن يشحذ قواته،ويستعد لمواجهة تكاد تكون وشيكة مع العدو النصراني،وهو ما وقع بالفعل لما قنبلت الجيوش الفرنسية ميناء الدار البيضاء واحتلت المدينة،ثم توجهت بقواتها نحو سهول الشاوية المفتوحة،حينها سارع موحى أوحمو إلى بعث فرق مدربة من فرسانه نحو السهول.

وما هي إلا أن طارت خيول الكتيبة الزيانية تسابق الريح،مخترقة سهول تادلة،لتعبر هضبة البروج وتصل أخيرا مشارف البيضاء المحتلة،حيث انضمت لقبائل المذاكرة وأولاد حريز لمواجهة الجيش الفرنسي في معركة الشاوية الشهيرة.

وصلت الأخبار سريعا إلى القائد الزياني تخبره أن العدو يتفوق عليهم عدة وعتادا،وأنه يملك من المدافع والرشاشات ما يستحيل معه مواجهتهم في أرض مفتوحة كالشاوية،وأن فرسان موحى أوحمو ما فترت لهم عزيمة رغم المعارك غير المتكافئة،لذا سارع بعد معركة الشاوية إلى استدعاء كتيبته نحو الجبال حتى تكون في مأمن من نيران العدو.

لطالما تميزت القبائل المقاومة بسرعة فرسانها وشدة مراسها

وسرعان ما كشف موحى أوحمو الزياني عن أي طينة من القياد هو،وأظهر للعدو الفرنسي عن العزيمة التي تميز بها أسد الجبال هذا بعد أن ظل لأزيد من عقدين يمثل شوكة في حلقهم،ولم يترك طريقا لمقاومتهم إلا وسلكه ،فعل ذلك في الوقت الذي ارتمى فيه جل القياد في حضن الادارة الاستعمارية بل وأضحوا وسيلتها الفعالة للقضاء على المقاومة وتثبيت نفوذ سلطات الحماية،والأمثلة على ذلك عديدة وربما يأتي على رأسهم الباشا الكلاوي والقايد المتوكي والكندافي والعيادي وعيسى بن عمر وغيرهم كثير.

غير أن القائد موحى أوحمو ثبت على مواقفه،وحتى لما كانت الجيوش الفرنسية تتقدم لبسط سيطرتها على زعير وزمور وتادلة باسم "السلطان" كان القايد الزياني قد عزم على التصدي لهم،وهذا ما جعله يشتبك مع الفرنسيين في معارك عديدة منها:

-معركة أفوراي وزحيليكة بمنطقة زمور في العام **1912**م.

-معركة أكوراي في ما من نفس السنة ببلاد كروان.

-معركة إيفران بتراب بني مطير في يونيو **1912**م.

-معركة وارغوس بناحية واد زم من العام **1913**م.

على أن أشد معارك القايد موحى أوحمو الزياني ضراوة هي تلك التي خاضتها قواته دفاعا عن "القصيبة" في العام **1913**م،بعد تحالفه مع قائدها موحى أوسعيد،هذا الذي وصفته المصادر الفرنسية بأنه"أمير حرب واسع النفوذ وسط قبائل أمازيغية بمنطقة تادلا".وذلك ضد قوات الجنرال مانجان بعد أن حاول هذا الأخير اقتحام أراضي ادلة المنيعة. إنه التحالف بين القائدين الذي جعل المقيم العام ليوطي يصرح:

-"لقد كونت القبائل جيشا يكاد يكون منظما،لها راية موحدة وروح موحدة،وعناصره المختلطة تطيع القيادة طاعة تلقائية،وكان هذا الجيش يواجه الموت بمثل أعلى موحد".

إنها معركة القصيبية التي دامت ثلاثة أيام متواصلة،وكبد فيه الحلف الأمازيغي قوات مانجان خسائر فادحة في الأرواح والعتاد،وجعلت أحد الجنرالات الميدانيين وهو كيوم يقول"إن خصمنا هو أحسن محارب في شمال إفريقيا،بطبعه شديد الكراهية للأجنبي،شجاع إلى حد المجازفة،يضحي بكل ما يملك، وبحياته في سبيل الدفاع عن حريته...ويختفي المهاجم بسرعة بعد أن يكون أتى على الجرحى ونهب الأموال واستولى في كل مرة على غنيمة من الأسلحة والذخيرة.."

والحق-كما يقال- هو ما شهدت به الأعداء قبل الأصدقاء...حدث كل هذا على الرغم من أن الجيش الفرنسي كان يمثل أحد أحدث الجيوش العصرية وأكثرها تنظيما وتسليحا،والمواجهة عموما كانت في سهول مفتوحة يسهل معها تحقيق نصر سريع للقوات الغازية،غير أن أمثال موحى وأوسعيد لا يتركون للعدو فرصة تحقيق النصر إلا بعد أن يستنفذوا كل سبل للتصدي،وهاهو موحى يقرر التراجع إلى حصونه العالية هناك بجبال الأطلس حيث سيسطر رفقة قبيلته أروع الملاحم البطولية وأكثرها ذكرا ورمزية.

-موحى أوحمو بطل "لْهْري" الخالدة:

بعد أن سيطرت القوات الفرنسية المتقدمة على سهول تادلة لم يتبقى أمامها سوى سفوح الأطلس المتوسط،هاته الجبال الشاهقة المنيعة والتي يدير شؤونها نسر جبال لا يرضى إلا بالحرية سبيلا ،جعلت جنرالات فرنسا يخمنون ألف مرة قبل أن يقبلوا على اقتحام غير مأمون العواقب،لذا فضل الجبناء طرقا أخرى قد تجدي نفعا مع قائد زيان المتحصن في أعلى الجبال،وهكذا بعثوا بأحد عملائهم،قائد بني مطير "أورحو" بهدايا ثمينة

ووعود براقة حتى يحمل موحى على الاستسلام أو على الأقل استمالته ليستمر قائدا مقابل الولاء للفرنسيين.

هذا الذي لم يكن ممكنا ولا متواجدا في قاموس القائد الزياني،فالرجل عنيد،والكراهية للنصراني الكافر شديدة،والعشق للحرية فطري..وما لبث الوفد أن عاد إلى الجنرال هنريس خاوي الوفاض،وقد سبقه في ذلك الجنرال ليوطي نفسه لما حاول في مرات عديدة استمالة موحى أوحمو بعد أن أرسل له شخصيات مخزنية واسعة النفوذ،لم تفلح جميعها في إقناع هذا الصقر الكاسر.

هكذا وجدت الجيوش الفرنسية نفسها في مواجهة لا مفر منها،لذا سارعت إلى الثأر لكبريائها وشن هجوم كاسح على معسكر موحى أوحمو بخنيفرة،بل ودخول المدينة يومه **12** يونيو من العام **1914**م،بعد أن هاجموها من ثلاث جهات،غير أن هذا الدخول يوشك أن يتحول بعد ستة أشهر إلى كارثة على الفرنسيين بعد أن فجعهم موحى أوحمو بنصر كاسح وكبدهم هزيمة نكراء اعتبرها بعض قادتهم الأسوء لهم في تاريخهم الكولونيالي.

-لهْري:ملحمة موحى الزياني:

بعد أن دخلت القوات الفرنسية خنيفرة،لتحاصر القائد الزياني وتسحق زيان وتنهي معها أسطورة موحى أوحمو التي طارت بأخباره الركبان..وقد كان جنرالات فرنسا يدركون المخاطر التي قد تنجم عن مهاجمة قبائل الأطلس المتوسط الشديدة الاعتزاز بنفسها والمتمسكة بحريتها،هذا ما قاله الجنرال كيوم:

-"لا تكمن قواة الزيانيين في كثرة عددهم بقدر ما تكمن في قدرتهم على مواصلة القتال بالاعتماد على ما كانوا يتحلون به من بسالة وتماسك وانتظام،وأيضا بفضل مهارة فرسانهم البالغ عددهم ألفان وخمسمائة رجل،فكانوا بحق قوة ضاربة عركتها سنوات طويلة من الاقتتال."

وسرعان ما أصدر القائد موحى أوحمو الأمر لقواته بالانسحاب بعد أن أدرك ببصيرته أن قواته تستنزف،فقرر التخفي خلف الجبال،حيث تستقر قرية "لهْري" النائية،وهناك ضرب معسكره المكون من ثلاثمائة من الخيام البيضاء المخصصة للتموين، والخيام السوداء المخصصة للمقاومين،وهذا يثبت قدرة قائد زيان العسكرية وفطرته كمحارب لا يلين ولا يستكين.

ظن الفرنسيون أن الزياني هزم وانسحب خلف الجبال،وأنه دحر وما عاد له قوة على التحمل،فسارع جيش من جيوشهم على تتبع أثر القائد أوحمو،ليظهر لهم موحى وقواته كسرب من النسور الجارحة ظهرت من عدم،ثم انقضت على المعسكر الفرنسي الذي شيد ب "الهْري" في لحظة رعب لم يكن ليتوقعها أشد جنرالات فرنسا حذرا،بعد أن كانت فرق من الفرنسيين تطارد كتائب موحى أوحمو،هذا الذي تحول من الانسحاب التكتيكي إلى الهجوم المباغت مربكا الفرنسيين ليشل حركتهم بالكامل، ويجعل معسكرهم في مواجهة الموت المحتم.

هنا نزل الزيانيون من أطلسهم،وعلموا مواقع مدافعهم موجهين فوهات نيرانها نحو معسكر الفرنسيين والذي تحول في يوم **13**من نونبر من العام **1914**م إلى أشبه بكرة نار ملتهبة،فلم يجد الجيش المحاصر سوى الموت يحصدهم والمنايا تترصدهم،فأسقط في أيديهم،ومات الكثير منهم رعبا وفزعا من مشهد مهول،حيث بنادق الزيانيين وسيوفهم وخناجرهم تقطع كل من مر أمامهم،وها من بقي منهم في البرية تلاحقه كتائب الموت الزيانية،تلك الكتائب التي فقدت في ملحمة "الهْري" ما يقارب الثلاثمائة قتيل،غير أن خسائر الفرنسيين لم يكن ليضاهيها شيء بعد أن فتك بها بالكامل.أما من كتب له النجاة فقد دخل خنيفرة والرعب في عينيه يحكي للقواة الفرنسية المرابطة بالمدينة الجبلية مشهد رعب اسمه "لهْري".

إنها المعركة الملحمية التي أظهر فيها موحى أوحمو قدرته على المخاتلة،وأبان فيها عن حجم الدهاء الذي يتمتع به ابن الجبال هذا،وهي نفسها المعركة التي شكلت للعدو الفرنسي الصدمة الكبرى في وقت كانت

فرنسا تخوض حربا عظمى هناك على الحدود مع ألمانيا المجاورة،حينما وصلت أخبار النصر المدوي إلى مسامع القوات الألمانية والتركية فسارعت إلى ربط الاتصال بالثائر الزياني وتهنئته،بل وهدمت بأكياس من الأموال مؤازرة له،تم ذلك بعد أن قدم لمعسكر موحى جنود دول المركز في زي تجار.

أسفر اليوم التالي للمعركة عن إبادة شبه تامة لجيش الجنرال"لوفيردير"والذي فقد حياته في لهْري وتحول معسكره إلى حلبة يعمها السكون، ويجتاحها الهدوء الرهيب، وكان هذا التجمع قبل اليوم مزهوا بالمطاردة التي استهدفت فرسان موحى أوحمو منذ تحصنه بالهْري "القرية الجبلية".

إنها الفاجعة العسكرية التي هزت الإقامة العامة هزا عنيفا،ودوت أخبارها ليس في المغرب فقط بل في كل المستعمرات الفرنسية،هذا ما قاله الفرنسيون أنفسهم عنها:"لم يسبق لقواتنا أن منيت بهزيمة في شمال إفريقيا بمثل هاته الهزيمة الفاجعة".حدث ذلك بعد أن أحصت الدوائر الرسمية الفرنسية حجم خسائرها وعدد قتلاها،فكانت الحصيلة:

*من أصل **1187** عدد قوات المعسكر الفرنسي المهاجم ل"الهْري" قتل **33** ضابطا،وقتل مائتي جندي فرنسي،و**218** قتيل في صفوف جنود شمال إفريقيا التابعين لفرنسا،و**125** من الجنود السينيغاليين،و**37** من قواة الكوم المغاربة الموالين لجيش العدو الفرنسي..

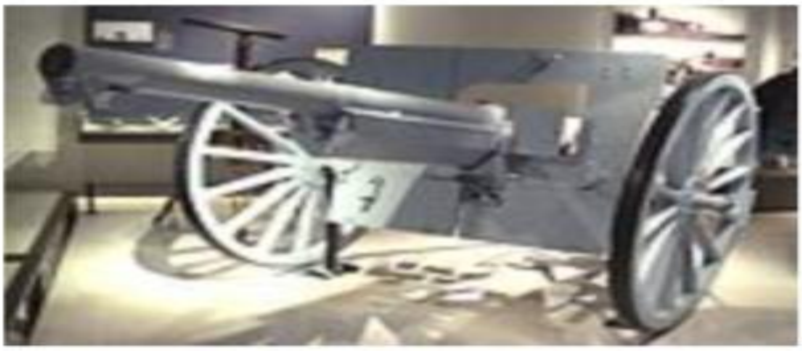

مدفع عيار 75 شبيه بالمدافع المغنومة في الهري

-أما المدافع والبنادق والرشاشات فلم يعد منها شيء للفرنسيين،فقد استولى عليه الزيانيون بالكامل،وأضحى غنيمة حرب طرب لأجلها الأهالي،وتزودوا بها لقادم المواجهات،وأضافوها لتلك الأسلحة التي كانوا يغنمونها من المعسكرات الفرنسية ليلا ،بعد أن يتسلل المقاتلون وهم شبه عراة وقد طلوا أجسادهم بشحم ابن آوى الذي يخدر كلاب المعسكر الفرنسي حيث يكون جنوده وقتها في غفلة تامة عما يحيط بهم وينهب ذخيرتهم تحت جنح الظلام الدامس.

-أنظر إليهم يا موحى وهم يفرون كالحمر المستنفرة فرت من قسورة،تركوا كل شيء خلفهم وقصدوا خنيفرة لا يلوون على شيء،ولو أعطى القائد الزياني إشارة لفرسانه بتعقب الفارين ودخول المدينة الجبلية لعجل بنهاية الوجود الفرنسي بالأطلس وربما بالمغرب كله،لكن أمر الهجوم الذي كان سانحا للزيانيين ظل معلقا ولم يكتب لهم استعادة المدينة..وإنها لنفس المدينة التي سيلملم فيها العدو الفرنسي جراحه ويعود هاته المرة أكثر عزما على الانتقام،بل وسيجعله الحقد الأسود على زيان يعمل على استقدام سلاح الجو كأول خطوة عسكرية سابقة في تاريخ المغرب:

-قصف معسكر للزيانيين بواسطة الطائرات،هذا الذي خلف خسائر كبيرة في أرواح الأهالي المحتشدين في الخيام على سفوح الجبال المنيعة.. كان هذا الهجوم النوعي كافيا بأن يحول القائد موحى أوحمو معسكره نحو

تاجوكالت،بعد أن بدا له أكثر أمنا،والأكثر تحصنا والأكيد أنه سيتخذها نقطة لهجوماته على معسكرات الفرنسيين،تلك الهجومات التي ظلت بعد "لهْري" مستمرة طوال سبع سنوات أخرى تصب الموت على الفرنسيين،حيث ظل شبح موحى أوحمو يطاردهم في نومهم ويقظتهم،حتى قال عنه أحد ضباطهم:

-"إن هذا الرجل كان مجرد اسمه يبعث على الرعب في النفوس،لأنه الأكثر تنظيما وحنكة في قيادة المعرك".

-نهاية الفارس:

كمحارب نبيل،استمر موحى أوحمو على مبادئه،لا يتزعزع إيمانه،ولا تفتر همته وإن تقدمت به السنون،وازدادت معها قبضة الفرنسيين على مناطق المغرب،غير أنه ظل شيخا في السبعين لا يرى إلا وبرفقته سلاحه،يتفقد المعسكر،ويفصل في القضايا الشائكة،يدبر الخطط ويخيط المناورات،إلى أن كان اليوم **27** من مارس من العام **1921**م،حيث كان موحى على موعد مع قدره الذي كان قد اختاره بنفسه قبل سبعة وعشرين من الأعوام خلت.

فقد كان الهدوء يعم معسكر الزيانيين إلى حين باغتتهم كتيبة من الجنود الفرنسيين،ساعتها هب أبناء موحى وفرسانه لمواجهة هاته الحملة العسكرية،فأعلن الاستنفار وتهيأ الرجال للقتال وتهيأت النساء للاصطفاف خلف المقاتلين،فهذا ما اتصفت به المرأة الزيانية من بسالة وإقدام،حينها أطل موحى الشيخ المجاهد وهو في عمر السبعين من أعلى ربوة يرقب الهجوم حتى يجد السبيل لرده،غير أن الموت كان أسرع لما اخترقت صدره رصاصة لا يعرف مصدرها،فسقط من على صهوة جواده وترجل أخيرا الفارس الذي لا يقهر.

كان مشهد مصرع موحى أوحمو شبيها بميتة أشهر الفرسان الذين لا يتم مجدهم إلا بالموت وسط ساحة القتال،وفي خضم المواجهة والنزال..ولعل سنه المتقدمة كشيخ مقاتل تشابهت إلى حد كبير مع نهاية فارس العرب في الجاهلية "عنترة بن شداد" ..ذلك أن فارس عبس لما أحس بهجوم العدو على

قبيلته سارع الى امتطاء فرسه والاتكاء على رمحه السمهري موجها صدره للأعداء والذي أرعبهم وجوده حتى بعد أن اخترقته سهامهم ونبالهم.

أما قائد زيان موحى فقد تلقى رصاصة في الصدر وهذا إن دل على شيء فهو يدل على أن الشيخ الثائر لم يكن أبدا موليا الدبر، بل خر صريعا وهو مستقبل للموت،معانقا للشهادة التي لطالما تمنى الحصول عليها وهو يقاتل بعمر يقارب العقدين من الزمن.

إنها معركة الشرف الأخيرة التي قادها الشيخ الثائر،وقد سميت ب"أزلاك نتزمورت"بعد أن ترصد له قناص مختبئ بجبل قريب من "إغرم تاجكالت"،وبعد أن حمل موحى طفلته الصغيرة"فاطمة تيحيحيت" أمامه إذ بالرصاص يخترق جسد الصغيرة التي ماتت بين ذراعي والدها،وحينها أدرك أنه سيتبعها لا محالة،فتقدم بفرسه وسط الرصاص المصوب نحوه،ثم نظر بقربه فوجد مستشاره ورفيق جهاده"محمد أقلوج" يسقط هو كذلك صريعا،ليتهاوى الثلاثة ويتم دفنهم لاحقا في الضريح الحالي"ضريح موحى أوحمو الزياني"..أما ابنته الأخرى لالة يطو فقد سقطت هي الأخرى شهيدة بعد أن روت بدماءها قصة أشهر النساء المقاومات في تاريخ الوطن وتلك حكاية أخرى تستحق أن تروى.

سيطلق الأهالي على مكان سقوط زعيمهم الروحي،وملهم ثورتهم وقائد جهادهم لقب"أزلاك تزمورت" وذلك لتواجد شجرة عرعار هناك على مشارف جبل أومالو أو ما أضحى يسمى ب"تاكركيرت القايد"،وقد كان المشهد مهيبا والحدث جليلا،مئات من أهل زيان هبوا لتشييع روح موحى إلى مثواها الأخير،ولندع شاهد عيان يحكي لنا بقية التفاصيل:

يقول القبطان الجزائري سعيد كنون وهو أحد قادة الاستعلامات الفرنسية الذي كان شاهدا على استشهاد قائد زيان"من القصر الذي كان شاهدا على العديد من الأحداث إلى المقبرة المتواضعة التي تدل عليها شجرة عرعار منكمشة،انتشر آلاف الرجال والنساء الحزينين ورؤوسهم مغطاة بقبعات جلابيبهم وثيابهم ملطخة بالطين التقليدي لأيام الأحزان

والمصائب:"بكى الناس في كل العشائر،وأخمدت النيران في جميع الخيام وهدمت علامة على الحداد العميق."... مات موحى بعد أن وفى ذمته،وصدقت فيه الآية الكريمة"من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه،فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا". الأحزاب،الآية **23**.

وهكذا بعد سيرة حافلة،ومسار في الجهاد والكفاح مثل قدوة للمقاومين في كافة ربوع الوطن،آن لموحى أن يستريح،بعد أن سقط جسده جريح،في ذلك الميدان الفسيح،حيث ووري جثمان موحى الزياني قرب المكان الذي استشهد فيه،مات وهو صادق في وعده الذي نطق به ذات يوم:

-"لن أرى نصرانيا إلا وأصبعي على زناد بندقيتي"..

تناولت سيرة موحى أوحمو عديد الأقلام المحلية والأجنبية ومنها هذا المؤلف الذي تضمن غلافا ملهما عن ملحمة هذا القائد الثائر.

*الحكاية الثالثة:

لالة يطو:حكاية ثائرة طاردها الموت

لا تكاد تخلو قصص الأطفال من استحضار حكايتي رفقة والدي

- بنادق العدو على قمم جبالنا:

يقول المناضل الكبير علال الفاسي عن مشاركة المرأة الزيانية في مقاومة الاحتلال الفرنسي للمغرب: "وقد اشتهرت في معارك الأطلس المتوسط الآنسة يطو بنت القائد الكبير موحى أوحمو الزياني،هذا الرجل الذي كافح الفرنسيين ..ابنته الآنسة يطو التي صممت على الاستمرار في المقاتلة مع أبيها حتى استشهدت إلى جانبه مثبتة أن المرأة المغربية ليست أقل جدارة من أخيها في الاستبسال في سبيل العزة والكرامة."

-أما أنا فأقول:" إن ذلك لم يكن بغريب عني وأنا المرأة الحرة الأبية،فقد ولدت في قمم الجبال،وكنت أشارك الصقور الهول والأهوال،ووقفت إلى جانب أهلي زيان وقفة صمود أربكت أطغى طغاة الاحتلال،حتى صار ذكرى عند هؤلاء النصارى ممزوجا بين الحقيقة والخيال".

أذكر يا سادة يا كرام،قريتي وأهلي والنهر الكبير،حيث كنا نعيش بسلم وسلام،تحت كنف والدي"الأمغار" قائد لزيان وقبائل الجبال،كان الخير وفير،والماء كثير،والكلأ حيث ترعى القطعان منتشر في السفوح وعلى ضفاف الوادي الكبير،كانت خيول والدي البربرية تملأ المكان صهيلا فنأنس لصهيلها،وكلاب الصيد تطارد الذئاب المفترسة تلك التي كنا نفزع من عويلها.

غير أن تلك الذئاب لم تكن تطمع في أكثر من شاة قاصية،تنفرد بها على حين غفلة من رعاتنا الحذرين لتظفر بها وتقدمها لجرائها النهمة،كانت تدرك أنه حتى اللصوصية لها شرف معين،وأن حدود الحفاظ على التعايش بين الإنس والوحيش يقتضي منها الصيد بضوابط معينة تعتمد على الغفلة والتخفي حتى تحافظ على حياتها ومعها حياة الكثير من مواشينا التي هي مصدر عيشنا.

لكن الشر الذي أطل علينا من خلف الجبال لم نكن نتوقعه أو نلقي له بال،فجأة تغير عويل الذئاب إلى صوت مدافع تنشر الخراب، وتنزل بالأهالي شر عقاب..وظهرت من فوق الأكمات قطعان وحوش تلبس سراويلا حمراء

وقبعات،يصيح فيهم قائدهم فيفزعون إلى تلك الآلات التي تنفث النار من جوفها فتنتشر الحريق والدمار..لم تكن تلك الذئاب البشرية تشبه ذئاب المغارات فقد كانت أشد منها توحشا،وأكثر منها قسوة بعدما نشرت الموت بين صفوف القبيلة،ولم تستثني القطعان ولا الخيام ولا دور العبادة الآمنة،حتى المساجد قصفت،حتى منابع المياه سممت،لم يكن لهؤلاء الوحوش ضمير يردعهم،ولا وازع يثنيهم عن انتزاع الحياة من أرض الحياة.

-والدي موحى أوحمو يسطر ملحمة"لهري الخالدة"

حينها وأمام هذا الواقع الأليم،قررنا ألا نستسلم لهذا المصاب الحزين،بل وشمرنا على السواعد،نساء وأطفالا ورجالا كلنا أعلنا المقاومة تحت مباركة والدي القائد،فصاح النفير أن زيان على وشك مواجهة شر مستطير،وأن حمل السلاح بات الوسيلة الوحيدة للكفاح،فجمعت الخيول وسرجت،وجيئ بالبنادق فشحنت بالبارود وملئت،ونادي منادي القبيلة:

-يا أهل زيان الأحرار،دونكم الأعالي فهي منجاة من إطلاق النار.

وامتثلنا لنفير الحرب عن إدراك بأن العدو يملك من السلاح الجديد ما يستحيل معها مواجهته في سهل مكشوف،فاخترنا الملاجئ والمغارات والكهوف ..ذلك حتى تظل معسكراتنا بعيدا عن نيران مدافعه،ومنها نلقمه السم الزعاف، ونذيق جنوده الموت وننهي تواجده،حتى جاء اليوم الذي برهنا للعالم أننا كنا كالنسور الشماء،وأن النصارى تجرعوا منا هزيمة نكراء،كانت تلك "لهري" معركة قلبت تاريخنا وسطرت ذكرانا عاليا في جو السماء.

حدث ذلك لما كنا نقيم معسكرنا على بعد فراسخ من خنيفرة،أرضنا التي استولى عليها العدو وأقام فيها حشده ومدافعه،وأضحى من حين لحين يبعث بفيالقه لتطارد الثائرين،وحينها انتبه والدي موحى أوحمو أن حبل المطاردة يلتف حول الزيانيين،فاتخذ خطته التي سترعب الفرنسيين،ادعى وفرسانه أنهم قد تولوا خلف الجبال فارين،آنذاك انطوت الحيلة على قائد العدو والذي أصدر أمره باقتفاء أثر المقاومين،فكانت الحيلة العجيبة من والدي الذي خبرته السنين،وعركته رحى المعارك فصار فارسا محاربا من المجربين.

لما يا سادة يا كرام،تيقن والدي أن أعدائنا توغلوا في الجبال،وأن نجدتهم من معسكر خنيفرة أضحى أمرا محال،أصدر أمره لفرسانه بالتفافة خاطفة صدمت الجيش المهاجم والذي تحول في رمشة عين من مطارد إلى محاصر،خناق قاتل يلوح في الأفق،فوقع الأعداء بين شقي الرحى،فمدافعنا تمطرهم من أعلى قمم الجبال بعد أن وضع والدي كمينا لهم دون أن ينتبه له أشد رجالهم تيقظا،وخيولنا قد طارت بالفرسان نحو قلب العدو،ذلك العدو الذي صعقته المفاجأة،وانطوت عليه الخطة المحكمة التي نصب شراكها والدي وفرسانه وهم يوهمون الفرنسيين أنهم فارين فرار المنهزم،فإذا بالرصاص يسكت أرواح جيش النصارى ومن والاهم،وإذا بنا نشهر الخناجر والسيوف والسكاكين فنشق بها صدورهم،فخر معظمهم بين قتيل وجريح وكثير منهم قضى بسبب الرعب الشديد الذي علا وجوههم وانفطرت له قلوبهم.

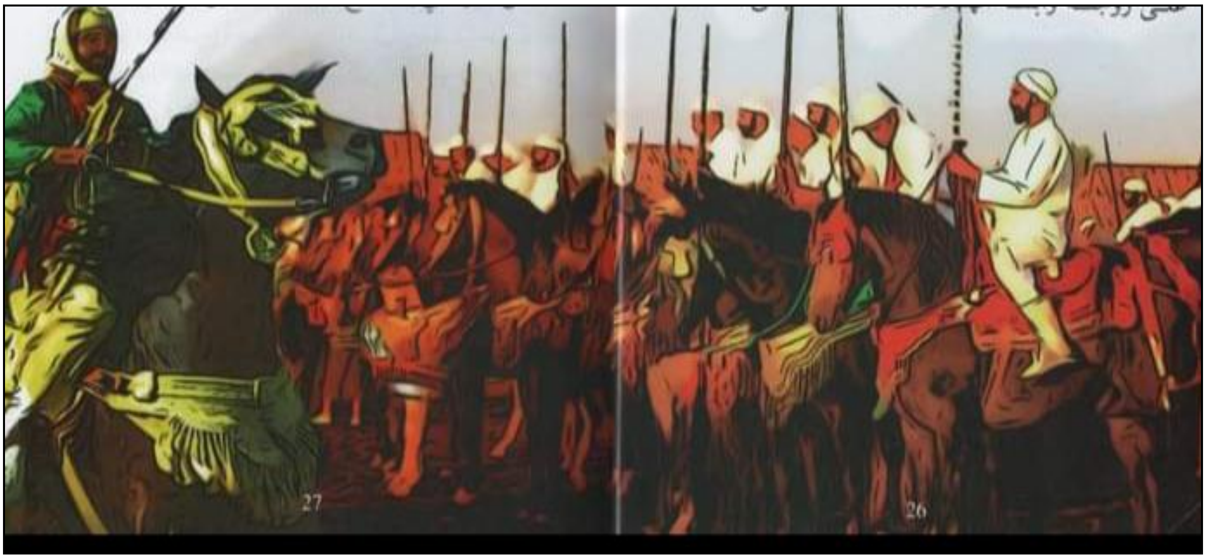

كان والدي قائدا محنكا،خبرته الحرب وخبرها عن كثب

أنظر إليهم يا والدي وهم يتساقطون تساقط الأوراق الصفراء في خريف عمرهم،قارن يا أبتي بين حالهم قبل المعركة حينما كانوا يتصايحون طربا وهم يطاردوننا،والآن صار معسكرهم يغلفه الموت من كل جانب،وأضحى متجبرهم طعما لغربان وضواري جبالنا التي ترفض كل دخيل،وتمقت كل متواطئ عميل،قليلون هم من كتبت لهم بعد "لهري" حياة،ففروا مذعورين لا

يلوون على شيء إلى أن دخلوا خنيفرة تعلوهم صفرة الموت،وتقض مضجعهم مشاهد الزيانيين وهم ينصبون كماشتهم القاتلة على معسكر اعتقد أن هزمه كان من المستحيل،لما يضمه من قادة وسلاح كان الأحدث حينها حتى مني القوم بهزيمة ارتد صداها في أرض العدو هناك خلف البحر المحيط حيث قدم هؤلاء الغزاة المستعمرين.

كم سر والدي بالنصر المبين،واتخذنا من يوم **28** من نونبر **1914** حدثا للذكرى،لا شك أن الأجيال التي ستخلفنا ستظل تردد نصر"لهري" من على تلال خنيفرة وسفوح وادي أم الربيع،حيث دارت تلك الملحمة الخالدة والتي أضحت نصرا للجميع...وهاهو والدي يستدعى البطلة المجاهدة "ظهو نعيشة" تحت زغاريد النساء،فيجلسها بجانبه ويهديها فرسا أصيلا وقطيعا من الخراف مكافأة لها بعد أن أخبرته أن العدو قد خرج من خنيفرة نحو معسكر "لهري"للإطباق عليه،وحينها كان والدي على بينة من أمره الذي جعله يحقق بفضل الله وفضل"ظهو" نصره المظفر.

-احتفاء بصد الطغيان،وتكريم لنسوة زيان :

ثم إن والدي ضم تلك المرأة الحرة إلى الخيمة التي كانت فيها نسائه بعد أن أقدمت على فعلها البطولي الثاني حينما قتلت زوجها لما علمت خيانته للمقاومين،وأدركت بحسها الثاقب أنه صار عينا للنصارى المحتلين،وكان من شأن مدهم بخبر عن والدي أن يكشف معسكرنا وينتهي أمرنا لا قدر الله منهزمين،غير أن "ظهو" كان لها رأي آخر،فحالت دون ذلك بأن أخرست صوت هذا الخائن ولو كان بالنسبة لها من أقرب المقربين.

ثم تقدمت باقي نسوة المعسكر فأطلقن الزغاريد،واصطف الرجال ليرقصوا رقة النصر وهم يزينون صدورهم بالخناجر التي لاشك أنها ازدادت بريقا بعد أن سننت بدماء الأعداء،وجلس والدي وسط الجموع يحيط به قادته وفرسانه،كان العمر يثقل عليه،وكثرة المعارك قد غيبت عنه البشاشة فلا يبتسم إلا نادرا...غير أن نصر"لهري" جعلته يستعيد بعضا من نظارة الشباب فأضحى والسرور يعلو محياه،وأمسى والرضى يشيعه نحو مبتغاه.

أما أنا فأجلسني والدي بجانبه،وكان يرمقني بنظرات الفخر وهو يستمع للأهالي وهم يقصون عليه شجاعتي المبكرة،ومساندتي للمعسكر رغم صوت الرصاص الذين كان يلعلع في كل مكان،ثم قمت وقبلت يدي والدي وتسللت نحو خباء النساء،فقد كنت خجولة بطبعي،فتواريت عن الأنظار إلى أن انفض الجمع بعد أن اتخذ القرار...كان قرارا فرضته الظروف،وعارضه بعض من وجهاء قومي متسائلين في دهشة"كيف لنا ألا نغتنم نصر"معركة لهري" وألا نقتحم عنهم معسكرهم هناك بخنيفرة !!"

أصحاب هذا الموقف كانوا أهل حماسة،ومعظمهم كانوا شبابا مندفعين بفتوتهم،بعدما أسكرهم نصرنا الساحق والمفاجئ،أما والدي وشيوخ القرية فقد كانوا يدركون بحكم خبرة الأيام أن هذا الانتصار لا يمكن أن نضيعه بهجوم أخرق غير محسوب العواقب،فيضيع كل ما حققناه أدراج الرياح،وأن هؤلاء الغزاة ورغم هزيمتهم المرة فإنهم سرعان ما سيرسلون جيوشا أخرى من فاس ومكناس القريبتين من خنيفرة إن اتخذنا موقف استعادة المدينة الزيانية.

وها نحن بعد النصر المبين،نتوغل عميقا في وسط جبال الأطلس حيث الثلوج الدائمة تمنع تقدم النصارى المحتلين،ومن هناك سيتمر والدي في حربه الطويلة ضد عدو أدرك بخبثه أن هزم موحى أوحمو بطرق نبيلة أمر شبه مستحيل،لذا اتخذ خططا أخرى غير المواجهة في ميدان المعارك،فاشترى النفوس والذمم،فخارت لذلك كثير من الهمم،وأضحى والدي بعد مرور سنوات على" لهري" شبه معزول بين أنصاره الأوفياء،ومخلصيه الأصفياء.

ومرة أخرى اخترت أن أكون إلى جانبه،أشد من أزره وأسانده،اختار كثير من إخوتي الإقامة في معسكرات بعيدة عنه،وكان العدو قد أدرك ذلك مسبقا،وأعد العدة لهجوم هاته المرة سيضع حياة والدي على المحك،ومعها حياتي وليس في ذلك أدنى شك..

-أنا ووالدي،لم تفرقنا الحياة ليفرقنا الموت:

نحن الآن في صباح اليوم **27** من مارس من العام **1921**م،بعد أن مضت سبع سنين على نصرنا في "الهري"،كل تلك السنوات التي تلت المعركة قضيناها بين الجبال،محاصرين ومحاصرين،تارة نختفي بين القمم فلا يعثر لنا على أثر،وتارة يهجم فرساننا على معسكر للعدو فيغنمون ويأسرون من سلاحه وجنوده ومؤونته الشيء الوفير،طالت الحرب واستطالت وأردنا أن ننهيها على طريقتنا لا على طريقتهم،رفضنا كل وساطة تدعونا للاستسلام، وإلقاء السلاح،كان ذلك حقا أمر صعب علينا فقد اعتدنا رائحة البارود وألفتنا خيولنا المسرجة على الدوام.

وذات يوم حين أطل الصباح،سمعنا عن قرب صوت السلاح..فأدركنا أننا محاصرون بين القمم،وأن جيش العدو قد أحاط بنا إحاطة السوار بالمعصم...فأسرع والدي فوق تلة يستطلع الأمر الجلل،فإذا برصاصة لا ندري مصدرها قد ختمت له الأجل.وبعد عمر طويل قضى معظمه مجاهدا مكافحا مستبسل،آن لهذا الفارس أخيرا أن يترجل:"فقد كان والدب بحق بطل من صناديد الأبطال،الذي خروا صرعى في ساحة القتال".

ذاك أنه لما دوى وابل من الرصاص على يمينه وشماله،لوى لجام فرسه ثم أركب اختي ذات الثلاثة عشر ربيعا أمامه،كان يضع يديه على صدرها ووجهها حتى يحميها من سلاح الغزاة،غير أن الموت كان أسرع إليها ففارقت وهي بين يديه الحياة،ثم في لحظة لمحت والدي وقد خر من على صهوة حصانه صريعا،فأظلمت الدنيا في وجهي وأدركت أن نهاية الشيخ السبعيني قد أزفت،فهنيئا له الموت شهيدا.

حينها لم أعد أعي ما أفعل،كل ما اعتراني حقد لا حد له تجاه هذا المحتل،فانتزعت بندقية من يد أحد رجالنا الذين سقطوا بفعل القنابل،وقصدت مسرعة اتجاه المكان الذي خر فيه والدي وأختي الصغيرة..ما أذكره وأنا في آخر لحظات عمري أن بندقيتي ما أخطأت رؤوس أولئك الذين اعترضوا طريقي،كانت نيتي الإسراع لإلقاء وداع أخير على أحبتي..ولم أكن أدري حينها أن القدر كان يسرع هو كذلك ليجمع جسدي بجسدي أختي ووالدي،وما إن كنت على مرمى حجر منهم حتى أحسست بحرارة الموت تخترق

أضلعي،وسرى دفئ مخدر على كل جسمي،ثم فجأة توقفت أذناي عن السمع فإذا الأصوات قد هدأت،وإذا بحواسي قد انطفأت،فغبت عن الوجود،ولم أعد أشعر بكل موجود.

في وطني،خلدوا اسمي بمدرسة تذكر الأجيال بقبس عن مجدي ومجد أهلي

*الحكاية الرابعة:

عدجو موح:"ثائرة من بوغافر"

-ذاك الجبل الشامخ حيث ولدت:

هناك خلف الجبال ولدت،كانت حياتي ستدون في الهامش،وسيطويها لا شك النسيان،لولى أن الزمن قذف بي فجأة نحو قدري،ورماني في خضم الأحداث وتلاطم الخطوب.إن حياتي قصة تروى،وحكاية عابرة للزمن، أطلقوا علي ألقابا عديدة،وتغنى بي أهلي في أشعارهم واحتفالاتهم حتى لا ينسى ذكري بين ظهرانيهم.

ترتبط حكايتي بمسقط رأسي حيث رأيت النور في يوم ما،يوم غير معروف ولم تدونه الكتب،ولم يسجل في خانة الأحداث المهمة،ربما سيكون موتي معروفا أكثر من ميلادي،هذا صحيح تماما،لا لشيء إلا لأني واجهت الموت بكل شجاعة فكتبت لي الحياة الخالدة،حيث تعيش قصتي في ذاكرة وطني وتسرد حكايتي دوما على لسان أهلي.

يقال إني ولدت في مطلع القرن العشرين،قرن الأحداث الكبرى،وعصر استطالة النصارى على كل بقاع الدنيا ،كان ذاك على الأرجح في إحدى

شهور العام **1905** للميلاد،ليس لي أوراق تؤرخ زمن ولادتي بالضبط،وإن كنت عبر حياتي القصيرة قد تمكنت من أن أعيد تسجيل محطات من حياتي بأحرف من ذهب.

وقد قدر لي أن أولد في أرض بعيدة عن مسرح الأحداث،هناك على حافة الجبل الثائر المسمى "صاغرو" ذاك المرتفع الشامخ الذي أثبت أن مسار بطولاته هو جزء لا يتجزأ من تكوينه البركاني وصخوره الصلبة التي لا تلين لمن حاول صعوده دون إذن من أهله،وإن كانت أشجار اللوز البرية والنخيل الباسقة قد ميزت هذا الجبل بالعطاء وأصبغت عليه الحياة،فإن كهوفه ومغاراته قد شكلت في الزمن الذي ولدت فيه منطلقا لشرارة الموت الذي أصاب الأعداء في مقتل.

عند السفوح الجنوبية لجبل صاغرو تتراءى لك الواحات الخضراء،تتناغم مع لون الصخور البنية التي تقف حارسة أمينة للأهل والأرض،وقد وفرت تلك المرتفعات الهدوء والسكينة للمنطقة التي تكاد تكون نائية بجغرافيتها،ومنعزلة بتضاريسها الوعرة عن مسرح الأحداث،إلى أن أشرفت طائرات العدو الفرنسي على المنطقة الآمنة حاملة معها الخراب والدمار لأهلي "قبائل آيت عطا"،وحينها فقط ستطفو حكاية صاغرو لتروى بدماء المقاومين من بني جنسي.

نشأت في قريتي الصغيرة كما تنشأ الفتيات من أهلي،كنا نذهب لجلب المياه من السواقي القريبة،ونملأ الجرار ونعود مسرعات إلى الديار،كانت أكبر أحلامنا أن نصنع بجريد النخل بيوتا صغيرة نضع فيها عرائسنا والتي نصنعها في الغالب من عجين التمر الذي اشتهرت به منطقتنا حتى جلب هذا النخيل نحوه الطامعين من زعماء القبائل المجاورة لنا أكثر من طمع النصارى أنفسهم.

وكثيرا ما رافقت أهل القبيلة في الترحال الذي كان يدخل في نمط عيشنا،نهاجر بالقطعان حيث الكلأ والماء،نقيم الخيام فنفترش الأرض ونتدثر بالسماء،تلك ذكريات أضحت بعيدة حينما قيد من حريتنا ذاك الحدث الجلل

الذي سأرويه لكم عما قريب.كانت بحق ذكريات طفولة بسيطة لكنها مثقلة بالأفراح ومنعمة بمحبة الأهل وعطفهم علينا.

ولما تجاوزت الحلم وغدوت شابة في مقتبل العمر،تقدم لخطبتي أحد أفراد قبيلتي،فقد كانت تلك عادتنا ونادرا ما تتزوج إحدى بنات القرية بعيدا عن المجال الذي ولدت ونشأت فيه،كان اسم زوجي الحسن نايت بوح،تزوجنا حسب تقاليدنا وأعرافنا،وكان يعاملني بالحسنى والرفق،كان زوجا كريما بحق.وقد أثمر زواجنا إنجاب طفلين هما " أحمد وخيرة"،هما ثمرة زواج مبارك من القبيلة وأهلها.

-الغزاة قادمون نحو المداشر:

غير أن أخبار زحف النصارى في النهاية على قبائل المغرب وتغلبهم بالعدد والعدة على الثوار من تلك القبائل الشجاعة التي قاتلت حتى النهاية،جعل أرضنا مطمعا للعدو الفرنسي وأتباعه من أنصار الكلاوي الذين قرروا اجتياح ما وراء الأطلس الكبير في بداية يناير من العام **1933** للميلاد.حينها هب الباشا الكلاوي نحو أرضنا ممهدا السبل لأسياده النصارى باحتلال ما وراء الأطلس،تلك الأرض التي ظلت عصية على الغزاة بعيدة عن أعين الطامعين.

حينها هبت قبائل آيت عطا مستنفرة للجهاد،حاملة راية الدفاع عن عن حوزة الدين وحرية البلاد،فاتحد أفرادها نساء ورجالا للدفاع عن كل شبر في أرضنا وموطن أجدادنا،وكنت من أوائل أولئك المستنفرين،وما لبث زوجي أن رحل بنا متجها نحو بوغافر وجبالها حيث سنتخذ من المغارات

والكهوف حصنا حصينا ضد الغزاة القادمين،بعدما أطل علينا العام **1933** للميلاد بخبر نزول النصارى وعملائهم الكلاويين بالجبال القريبة منا....كان خبرا صاعقا جعلنا في حالة استنفار،ونادى منادي في الأسواق بأعلى صوته أن: "هبوا لنجدة الأهل والأرض من النصارى الفرنسيين".. وبالسرعة ذاتها غادرنا الديار.قاصدين مقر الزعيم عسو أوبسلام للقتال تحت رايته.

-المشاركة في المقاومة:

تحصن المجاهدون في قمم الجبال،مسلحين بقوة الإيمان وعزيمة رجال بعدما هبوا طواعية للتصدي لهؤلاء الغزاة القادمين كالجراد المنتشر،بينما اصطفت النساء مع الرجال جنبا إلى جنب،وقد قسمن المهام بينهن كل حسب استطاعتها:

-فوج تخصص في جلب الماء إلى المعسكر المقام على قمم جبال صاغرو الشاهقة.

-وفوج آخر –ومعظمهن شاعرات- عملن على رفع الهمم والتحريض على القتال.

-وفوج ثالث كن يمسكن جريد النخل،يلطخنه بالحناء،ويرمين به كل منسحب خائف من هزيز الرصاص وصدى الموت المتردد في أرجاء الجبال المحيطة ببوغافر .

-وفوج رابع حمل السلاح،ورافقن الرجال في الصمود والكفاح.

كانت عدجو موح شاعرة تجيد شعر الحماسة،تصدر عبر صوتها الصادح كلمات كالسهام تنفث على الأعداء،تقوي العزائم وتستنهض الهمم،لم يثنها مشهد القصف المدفعي الذي استخدمه العدو لترويع المجاهدين الذين تحصنوا داخل مغارات وكهوف الجبال،بل كانت تحرص دوما على إغاثة الجرحى وشحن البنادق بالبارود بعد أن تلقي بأغانيها أمام مسامع العطاويين الذين أحبوها كما أحبوا شعرها.

أما الجيوش الفرنسية فتقدمت نحو معسكر عسو أوبسلام مدعومة بفرق الكوم المجندة من المغاربة والسنغاليين،ثلاثة وثمانون ألف جندي،تدعمهم عشرات المدافع وأرب وأربعين طائرة كسلاح للجو،في حين لم تكن قوات عسو أوبسلام تتجاوز السبعة آلاف مجاهد..حينها توغلت تلك القوات الغازية تحاصر مقاتلي آيت عطا من الاتجاهات مستخدمة أحدث الأسلحة بما فيها الطائرات،ذاك السلاح الفتاك الذي لم يسبق للمغاربة ومنهم العطاويون أن رأه من قبل،حتى شاهدوا سرب الطائرات وهي تمطر الجبال بوابل من القنابل التي نشرت الرعب وقضت على المواشي وأحرقت الزرع وحولت أجساد أهالي آيت عطا إلى أشلاء،لا تفرق بين شيخ ولا صبي ولا امرأة.

إنها آلة الحرب المدمرة والتي ستستخدمها فرنسا المجرمة لأول مرة في تاريخ مواجهتها للمقاومة المغربية،فكانت معركة بوغافر شاهدة على تلك المواجهة غير المتكافئة تماما بين جيش يملك السلاح الرشاش والمدافع الثقيلة وفوق ذلك كله سلاح الطيران،أمام جماعة من المجاهدين لم يتجاوز عددها الألفين،ولا تملك من السلاح إلى "بوحبة" وبعض البنادق التي غنموها من الفرنسيين.

-محطات من معركة بوغافر الملحمية:

في العشرين من فبراير جرت أولى معارك بوغافر،حيث هاجم ثلاث مائة مجاهد معسكر الفرنسيين قرب قصر ملال،وقتلوا خمسة جنود وعشرة من الكوم،وغنموا عديد الأسلحة والمؤن...كان هجوما مفاجئا للفرنسيين الذي لم يتعودوا على تلك الهجمات منذ أن دخلوا طاطا في العام **1929**م،لذا سارع

الجنرال"هوري"إلى شن هجوم كاسح للقضاء على المقاومة المتحصنة بمرتفعات بوغافر المنيعة.

والأدهى من ذلك أن الجنرال الفرنسي "هوري" القائد العام للقواة الاستعمارية إلى الاستنجاد بثلاثة ضباط لهم صيت سيئ في التنكيل برجالات المقاومة،كان من ضمنهم جنرال لا يرحم،قائد سفاك سفاح عرف في الروايات الشعبية ب"الجنرال الأحمر" لشدة فتكه بالمقاومة المغربية،وشططه في استعمال كل الأسلحة المتاحة قصد القضاء على الثوار المغاربة،إنه "الجنرال هنري دو بورنازيل" الذي كان حاضرا بكل غطرسته في حرب الريف،كما أوصى سيدي عبد الكريم شخصيا بتصفيته،لكن قدر هذا الجنرال البغيض لم ينتهي في الريف إنما في بوغافر.

في **28** من فبراير **1933**م وبينما كانت المعارك ضارية بين الفرنسيين ومجاهدي آيت عطا،تمكن أحد العطاويين الشجعان من تصويب بندقيته على رأس الطاغية بورنازيل،والذي سقط دون حراك، ذلك السقوط الذي صدم الغزاة،وجعل هذا اليوم المشهود المجاهدة عدجو موح تخرج أقصى ما لديها من قوة كامنة.

تحكي الأخبار القادمة من بوغافر أنه في الوقت الذي سقط بورنازيل ميتا،جن جنون الجنرال الفرنسي الآخر"جورج كاترو" وأمر سلاح المدفعية والطيران بالقصف العشوائي في كل اتجاه،حينها انتشر الخراب وعم الموت،وسقط المئات من العطاويين،لا فرق بين نساء وأطفال ورجال قادهم حظهم العاثر إلى الموت الأسود الذي عم المكان..وقد كان الحسن نايت بوح-زوج عدجو-من ضمن الذين أخذتهم يد البطش الفرنسي على حين غرة.

في لحظة ما،ومع الفوضى التي أحثها القصف الرهيب على مغارات جبال بوغافر خرج المجاهد نايت بوح لاستطلاع المكان،والتصدي للجنود الفرنسيين الذي استغلوا التغطية الجوية للتقدم نحو معسكر أوبسلام هناك في الأعلى،حينها ستحول قذيفة جسد الحسن إلى أشلاء متناثرة في الهواء،لتتحول معها عدجو موح إلى لبؤة غاضبة بعد أن شاهدت بأم عينها ما

حل برفيق دربها..إنها لحظة فارقة في حياة "ثائرة بوغافر" تلك المرأة التي سارعت إلى انتزاع بندقية من يد أحد رجالات قبيلتها الصرعى عاقدة العزم على تسجيل أروع البطولات وأشهر الملاحم الخالدة.

-عدجو موح تنهي حياة أربعين فرنسيا:

إنه اليوم التالي لاستشهاد زوجها،سلاح الطيران الفرنسي يشل المكان،والجنود الفرنسيين يزحفون نحو أعالي الجبال،تحت غطاء من نيران المدفعية الكثيفة،حينها ستضرب عدجو موح ضربتها التي زلزلت الغزاة،وأصابت العشرات منهم في ممات،ذلك العمل البطولي الذي ستقدم عليه "مجاهدة آيت عطا" سيجعلها نجمة في أعين الأهالي،وستتغنى بها الألسن طويلا،ولا شك أن اسمها لن ينسى في ذاكرة تلك القبيلة المجاهدة والتي قدمت دروسا في المقاومة وأعمالا عظيمة في البطولة.

في ذلك اليوم الذي لمحت فيه عدجو موح تقدم الفرنسيين،صاعدين لأعلى بقبعاتهم الزرقاء وأحذيتهم السوداء،بدوا كالفراش المنتشر فوق صخور بوغافر،كانت المرأة الثائرة تراقبهم من مكان حصين قد اتخذته ملجأ لها تحتمي به من القصف العشوائي،وهي تنظر من أعلى تلمح فرقة فرنسية وقد تقدمت مزهوة بالنصر،مطمئنة إلى التغطية الجوية إلى أن داهمها الموت،ذلك الموت الذي لم يكن مصدره إلا فاتنتا عدجو موح.

فلما دنت الفرقة الفرنسية من إحدى حصون المجاهدين،أشارت عدجو بيدها إلى أفراد الحصن بالتزام الهدوء،وألا يحركوا ساكنا حتى تنفذ ما عزمت عليه،وما هي سوى لحظات حتى دحرجت الثائرة الشجاعة صخورا كبيرة على رؤوس الفرقة المهاجمة،حينها أصيب الفرنسيون بالذعر الشديد،وهم يعاينون الموت القادم من أعلى الذي شتت شمل الكتيبة،وفر من نجى منهم نحو قعر الوادي،بينما هوى الكثير منهم من أعلى بعد أن هشمت صخور عدجو رؤوسهم بعملها الفدائي النادر..إنها قوة امرأة عطاوية منتقمة،وإرادة مجاهدة صممت على الثأر لزوجها وقبيلتها،فكانت الحصيلة:

-أربعـون جنـديا فرنسـيا صرعى،وعشـرات المصـابين ومئـات الفـارين المذعورين من هول الحادثـة،كل ذلـك قامـت بـه عـدجو مـوح لوحـدها،لتثبت لهؤلاء الغزاة أن المقاومة لم تكن حكرا فقط على الرجال،بل حتى المرأة كان لها دور الريادة ونصيب من القيادة.

إنهـا الضـربة الكبـرى التـي صـدمت قـادة الجيـوش الغازية،وأصـوات هـدير الصخور التي يصيب ذعرها أشجع الشجعان بـالموت حتـى قبـل أن تصـطدم بالرؤوس،وهو الاندهاش الذي جعل الضابط الفرنسـي جـورج كـاترو يصـف شجاعة نساء بوغافر بقوله:"كن يتسـللن بشـجاعة خارقـة إلـى مـوارد الميـاه تحـت نيـران رشاشاتنا،ويسـقط أغلـبهن،لكن الباقيـات يواصـلن مهـامهن البطولية،ويحمسـن المقـاتلين بالزغاريـد المدويـة،كما يقمـن بتوزيـع الـذخيرة والمؤونة ويأخذن مكان القتلى،وفي غياب الأسلحة يدحرجن على المهـاجمين من قواتنا أحجارا ضخمة تنشر الموت حتى قعر الوادي."

-أليس قديما قد قيل:"أفضل الشهادات تلك التي تأتيك من عدو"؟

وكأن كلام هذا الجنرال ينطبق تماما على الثائرة عدجو،كل ما صرح به فعلته بطلتنا،وربما أكثر من ذلك بكثير،أعمالها البطولية التي أضحت بفضلها نجمـة المقاومة ببوغافر بلا منازع،خلدتها الـذاكرة الشـعبية بأشـعار رائعـة وأغـاني جميلة لا زالت تتردد فـي الحفـلات والأعـراس التـي يقيمهـا العطـاويون إلـى يومنا هذا،ومن تلك الأشعار ما أنشدته حنجرة المجاهد "احماد أوباسو" الـذي كان حاضرا إلى جانب عدجو موح في ملحمة بوغافر:

شاركت في معركة بوغافر

نساء كن غاية في الجمال

حملن الأسلحة والبنادق

وكن يتحركن كاللؤلؤ والمرجان

فقد قمت بجمع ألفين من الأكباش والخيول

وقدمتها لك هدية أيتها المقاومة عدجو موح.

أما لسان حال الثائرة العطاوية فكان يفخر حتما ببسالة أهلها،ونصر بوغافر الذي حققته مع قبيلتها على الرغم من الخسائر الفادحة في الأرواح والحصار الخانق للمدافع والطائرات التي قدم بها الغزاة منذ بداية يناير من العام **1933** للميلاد،شهرين من الحصار والمعارك اليومية التي تكاد لا تنتهي،والمجاهدين صامدين،والعملية الفدائية لعدجو قد أحدثت طنينا قويا في مسامع آيت عطا والفرنسيين،بينما عدجو موح تردد أشعارها رفقة النسوة المجاهدات أمثالها.

كانت "تاوكرات" شاعرة بوغافر،عجوزا هرمة عمياء،صعدت قمم جبال صاغرو لتشارك بشعرها في بوغافر،وقد كانت أشعارها سلاحا فتاكا يخيف ضعاف النفوس من أفراد القبيلة،أكثر منه يخيف الفرنسيين الذين اعتبروا أشعارها الحماسية أشد وطأة من بنادق المجاهدين،وقد شكلت بتعبير أحد الضباط الفرنسيين "العدو الرئيسي لقوات الاحتلال".

ظلت "تاكراوت" تردد أشعارها غير مبالية بالقذائف والنيران،تستنهض الهمم وتحث الرجال،ومما جادت به قريحتها:

أتى النصارى وشربوا من العيون

غير خائفين

ربطوا خيولهم وضربوا الأوتاد

وقالوا لكم سنتجاور بالخيام .

إنها تحث قومها على عدم الاستسلام،وكا عدجو موح كانت تحب الموت بشرف في ساحة المعركة عوض الخضوع لجبروت المحتل الغاشم،بل وتتحديان معا هؤلاء الغزاة لتظهرا معدن ما أنجبت آيت عطا من نسوة وبنات،ولسلن حالهما يقول:

أيها المستعمر شارضون

المرأ ةالبوغافرية تتحداك

وتقول لك عفر وجهك في الطين

يكفيني فخرا واعتزازا مقاومتي للنصارى

في أعالي الجبال وبين الصخور

أنام وسط الأحراش والأحجار والأمطار

حتى تآكلت ملابسي وتمزق منديل رأسي

في أعالي الجبال وداخل الكهوف والمغارات.

كانت تلك الأشعار التي ترد على لسان العجوز تاكراوت والثائرة عدجو بمثابة البلسم الشافي والغذاء الروحي للمجاهدين،وهم يحققون النصر في "معركة بوغافر" متحدين بذلك أشد الأسلحة فتكا،ومسطرين أروع الملاحم والبطولات،رافضين للهزيمة أمام هؤلاء الغزاة،بينما انضمت بقية النسوة تلهبن مزيدا من الحماس والصمود،فتنشد "هرة نايت بنهكو" رثاء في زوجها الذي استشهد في بوغافر الضارية:

آه..يا قمة بوغافر أكثرت من اليتامى

في مغارتك استشهد رفيق حياتي

آه...لن أنسى فاجعة استشهاده

حين بلغني الخبر من طرف المقاومين.

هكذا تشابهت قصة عدجو مع قصة هرة،بل وكثير من النسوة العطاويات فقد الزوج والأبناء والآباء،لكنهن لا يلتفتن للوراء،روحهن المجاهدة تأبى الاستسلام والخضوع للنصارى الغزاة،ولما تشتد ضربات العدو المسلح بالحديد والنار،ويتساقط المجاهدون تباعا من ذلك القصف العنيف تهب عدجو موح كالصقر المنقض فتلقي كلماتها الحماسية:

أراد المستعمر أن نؤدي الضرائب

ونمنحه البيض والسمن والدجاج

قسما بالله لن نمنحه إلا رصاص بنادقنا.

فتتأجج حينها المشاعر،وتستنهض العزائم،ويشد المجاهدون على أسلحتهم الخفيفة مقتنصين كل عدو أطل برأسه على مغارات بوغافر وكهوف جبالها الشاهقة،وفي أعلى القمم التي قد تتجاوز الألفي متر تطلق البنادق ذخيرتها الحية التي ترعب الغزاة وتضطرهم إلى التقهقر نحو معسكراتهم الآمنة بعيدا عن الجبال.

أما بطلتنا عدجو موح فاستمرت في نهجها القويم،تكاد بندقيتها لا تفارقها،وقد تشمرت للكريهة وأعدت لها،تعصب رأسها بعصابة الموت،وتشد من إزارها حتى لا يعيقها وهي تتحصن في أعلى القمم،رافعة من المعنويات والهمم،مدونة بسلاحها ما سيعبره عنه القلم،كانت نفسها الثائرة ترفض الهزيمة وتأبى الاستسلام،أما بقية النسوة فكن يرددن أشعارا حالما يبصرن الخوف في وجوه الرجال،ولما استحر القتل بالمجاهدين وأرعبتهم طائرات العدو بأزيزها وصوتها الفتاك كن يقلن عن ذلك:

لقد عايشت أحداث بوغافر

أردت مقاومة المستعمر كي لا يصل ديارنا

وأخذت بوشفر،وأخذ(هو) يقصفنا بالقنابل

وعندما بدأ في استعمال الرشاشات والأسلحة الثقيلة

لم نجد بدا من التراجع إلى معاقلنا بالجبل

آه..لقد اختلطت لنا المياه بالدماء في منابع العيون

وجرى الدمع من عيوني كأنه زخات مطر

صعدت طائرات المستعمر الغاشم إلى السماء

آه...لقد تفطنا أن القصف بالطائرات

لكن المواجهة بين "ساسبو" والطائرة غير متكافئة.

إنه السلاح القاتل الذي شكل صدمة للمجاهدين نساء ورجالا،توظيفه من طرف الفرنسيين شكل فوارقا هائلة بينه وبين المجاهدين،ورغم أن عدجو وأهلها برهنوا على صمود منقطع النظير فإن طائرات العدو أربكت ذاكرتهم،وأدخلت اليأس في النفوس،وأظهرت العجز في القلوب،حتى قالت رفيقة لعدجو موح وهي تصف غارة جوية مدمرة على موقع المجاهدين:

طار اللقلاق من الأرض حاملا في منقاره النار

أيتها التيريكراف إلى أين تحملين الأثقال !!

تحملين القنابل الحارقة،

كلما رأيناك يصيبنا الرعب.

ثم تنادي شاعرتنا على رفيقتها التي قضت جراء قصف طائرة الغزاة المدمر،تتحسر على موتها وموت الأهل والأحبة،بين صخور تلك الجبال المنعزلة حيث سلط المستعمر الغاشم جبروته على الشعب الأعزل،ذاك الشعب الأبي الذي فضل الموت على الخنوع:

يا عائشة !!التريكراف جعل حياتنا لا تطاق

ضرب قرب مساكننا وضرب أغنامنا

وكلما أخرجت ماشيتي وسرت بصحبتها

فاجأني التريكراف يطلق رشاش الردى.

كانت تلك الجبال الشاهقة مسرحا لبطولات عدجو موح ومكانا لاستشهادها

-استشهاد الثائرة عدجو وميلاد أسطورتها:

لم تكن المفاجأة فقط في استخدام"التيريكراف" وهو اللقب الذي أطلقه مجاهدو بوغافر على طائرات الغزاة،بل إن ليلة الثامن والعشرين من شباط/فبراير ستحمل معها مفاجأة مدوية إلى صفوف العطاويين حينما تمكنت يد الغدر الاستعمارية من أن تغتال الثائرة عدجو موح،حينها حلت الحسرة على كل القبيلة رجالا ونساء وأطفالا،فقد كانت "ثائرة بوغافر" تمثل رمزا للصمود،وأسطورة حية تمشي على رجليها بين أفراد القبيلة،بطولتها التي نفذتها قبل شهر من الاغتيال المشئوم جعلت اسمها يتردد على طرف كل لسان.

ولعل أكثر الألسنة التي أجادت نعي المجاهدة العطاوية هي ألسنة شعراء وشاعرات بوغافر،ممن عايش عن قرب الثائرة عدجو وعاين عن كثب أعمالها البطولية وقصة صمودها في جبال بوغافر المنيعة،في ليلة استشهاد بطلتنا عدجو موح اجتمع الأهل والتفوا حول جثمانها،بينما أطلقت النسوة زغاريدا دوت في أرجاء الجبل الصامد..كانت تلك عادة المجاهدات في أن تستقبلن جثامين الشهداء والشهيدات بالزغاريد تعبيرا عن نيلهم للشهادة المرجوة ومعها الجنة الموعودة..لكن عدجو موح لم تكن امرأة عادية

بالمرة،وخسارتها ستخلف لا محالة أسى كبيرا في نفوس الأهالي حتى وقف الشاعر سيدي بادو أومسعود قائلا:

سأروي قصتك يا معركة بوغافر

سأحكي أحداثك وأحزانك كي لا تنسى

أقسم إن أفراحنا ومسراتنا قد اختفت

كما أقبرت ضحكتنا منذ استشهاد عدجو موح

يا من حملت السلاح وواجهت وقاتلت السينغاليين

بكل شجاعة واستماتة يستحيل وصفها

فأنت الوحيدة التي خففت من أحزاننا ومآسينا

بحملك للسلاح وسط الفتيان في بوغافر

أنعيك اليوم وأنع معك أصحاب السروج النحاسية.

هكذا شكلت ليلة استشهاد عدجو موح نهاية لحياتها الجهادية،لكن حياتها الأسطورية قد بدأت لتوها،عشرات القصائد والمرثيات قيلت في بطولاتها،وأعمالها الفدائية خلدت من جيل لآخر،في حين أعطيت العناية الكاملة لأحمد وخيرة بعدما فقدا والديهما في تلك الملحمة الشهيرة التي دارت ما بين يناير ومارس من العام **1933** للميلاد،وكانت آخر ملاحم المقاومة المغربية التي أذاقت المستعمر ألوانا من الخسف والهزائم.

أما جبل بوغافر الذي شهد أمجاد عدجو موح فقد أبى إلا أن يوارى جثمانها داخل إحدى مغاراته وكأن تلك القمم العالية كانت تعتز بما قدمته المجاهدة الثائرة من بطولات عز نظيرها،وقل مثيلها.. في الليلة الموالية حمل جثمان الشهيدة العطاوية بعد أن أقيمت لروحها صلاة الجنازة،وكفنت في ثيابها مدرجة بدماءها الزكية حتى تستشهد بذلك عند بارئها...كان يوما

حزينا،وحادثا أليما فطغى مشهد الحزن على المعزين،وحل الألم في نفوس المجاهدين،وتكلم المقاوم احماد أوباسو عما في النفوس قائلا:

أيتها الرياح خبريني بربك عن أحوال عدجو موح

أجابتني وقالت: لقد استشهدت عدجو موح

في النهاية لم يذهب استشهاد "ثائرة بوغافر" أدراج الرياح،بعد أن صمد المجاهدون بزعامة عسو أوبسلام صمود الجبال،وقاتلوا قتال الأبطال،لم يساوموا على دينهم وأرضهم،ولم يرفعوا راية بيضاء تدل على استسلامهم إلا بعد أن استحكم الحصار وطالت وطأته،واشتد القصف الجوي والمدفعي وارتفعت خسائره،ونهج قادة الغزو أسلوب التجويع وحرق المحاصيل وقتل الماشية،ومات في جو القصف ما يزيد عل ال **1500** قتيل من آيت عطا الصامدة،وظهر لعسو أوبسلام –كما ظهر لعبد الكريم قبله- أن استمرار المقاومة ضرب من الجنون ومسألة الصمود أما مفوارق العدة والعتاد بمثابة انتحار جماعي...وحينها فقط قرر القائد العطاوي قبول شروط الاستسلام مع العدو الفرنسي في **24** آذار/مارس من العام **1933** للميلاد.

كان ذلك الاستسلام قد تم بعد أقل من شهر على استشهاد عدجو موح،وكأن المقاومة بجبل صاغرو كانت تستمد من روح"ثائرة بوغافر" قوتها واستمراريتها،ولما خرت موح صريعة فوق ميدان المعركة الضارية،أدرك لحظتها المجاهدون أن الكفة مالت للعدو المدجج بكل وسائل الترهيب،فترك أهالي آيت عطا جثمان فقيدتهم هناك في أعلى قمة بوغافر حيث دفنت،وقفلوا نازلين نحو السفوح حيث عقد الصلح في الخامس والعشرين من مارس **1933**م بين الجنرال هوري وعسو أوبسلام،هذا الصلح الذي لم تفقد فيه المقاومة شرفها ولا عزتها،ومن تلك الشروط:

- الابقاء على عسو أوبسلام زعيما للمنطقة.

-عدم السماح للكلاوي بأن تطأ رجله النجسة أرض المجاهدين.

--الحفاظ على العادات والتقاليد والحرية في الدين.

-ألا يتعرض الغزاة بسوء لنساء آيت عطا.

ربما كان الشرط الأخير اعترافا بمكانة المرأة العطاوية،وتقديرا للمجاهدات منهن،كما هو الحال مع الشهيدة عدجو موح،والتي ضحت بحياتها من أجل كرامة بني جنسها..وحدها روح عدجو موح ظلت تحرس بوغافر ،تذكر كل من مر على تلك المرتفعات الشاهقة أن هناك ثائرة مجاهدة كتبت على صخور بوغافر أروع الملحمات،و كبدت الغزاة الفرنسيين أفدح الخيبات ،وأن اسمها رددته الصخور والمغارات قبل أن ينظمه الأهالي أشعارا تخلد لمسيرة مجاهدة كانت كالعديد من النسوة الأمازيغيات من رضعن الحرية وسطرن أروع البطولات. ذاك ما اتصفت به "ثائرة بوغافر" حيث قيل:

واحدة هي التي كانت تملأ سكون ديارنا

"عدجو موح " ....قد دفناها

ولم تعد الرغبة في التزيين بالحنـــاء

عند نسائنا بعد استشهادها .....

*الحكاية الخامسة:

زايد أسكونتي:أسد الجبال المحارب

في أواخر القرن التاسع عشر،وبالضبط في العام **1890**م ولد الصبي زايد بأحد مداشر "إدموما" نحاحي الريش،تلك المناطق التي تسمي مداشرها باسم "القْصور"،حيث سينسب زايد إلى أحدها وهو "قصر تاسكونيت" فلا يكاد يعرف باسم غيره،التصق اسم المكان باسم بطلنا زايد،فلا نكاد نعرف حينها من له فضل السبق على الآخر:زيد أم "القْصر"؟

شب الفتى وكبر في زمن اضطراب وتسرب أوربي تسلط على المغرب وحاصره من كافة الجهات ، وفي وقت عملت الإدارة الاستعمارية على استمالة القياد للعمل تحت سلطتها،حيث انقاد لها الكثير منهم،مع بعض الاستثناءات المعدودة على رأس الأصابع،ولعل"حمو عسو" قايد إدموما كان من هؤلاء القلائل الذي رفضوا التعاون مع المحتل "النصراني" وأعلنوا مبكرا مقاومته لنفوذه وجبروته.وهو الأمر الذي جعل والد الشاب زايد يرسله ليكون في خدمة هذا القائد الشهم.

وهكذا يسر القدر لزايد تربة صالحة للنشأة،حيث تربى الفتى التاسكونتي في دار القايد حمو عسو، وتعلم منه فنون القيادة،وفضل الجهاد والدفاع عن العرض والدين،حتى غدا زايد من كبار المقاومين بتافيلالت ولا يقترن اسمه إلا بأشهر مجاهدي المنطقة كعسو أوبسلام،وزيد أوحماد وعدجو موح ...

ولما اشتد عوده وقويت عزيمته،انتقل رفقة والده إلى واحة"تاديغوست"التي شكلت إحدى أهم المحطات التي اتخذتها المقاومة بالأطلس الصغير وما وراءه مقرا لها ولرجالها،ومنها ستنطلق حكاية زايد أسكونتي والعديد من المجاهدين الذين خلدتهم الذاكرة الشعبية بالفخر والعزة.

كان زايد أسكونتي كغيره من أبناء درعة عارفين بمسالك المنطقة،وله دراية وخبرة كبيرة بتسلق جبالها ومعرفة مسالكها الوعرة،لذا عوض زايد ورفاقه شح السلاح بمهارات معرفة الجغرافيا وتوظيفها لصالح مقاومتهم التي اعتبرت أشرس المقاومات المغربية وآخرها زمنا.

في واحة"تاديغوست" تزوج زايد أسكونتي بالسيدة "عائشة واسو" تلك المرأة المناضلة التي كانت له خير معين،وأفضل رفيقة حملت إلى جانبه البندقية ضد الغزو الفرنسي الذي حل بالريش في وقت مبكر،بل حتى قبل توقيع معاهدة فاس،إذ تحكي الروايات أن زايد شارك في المعارك الأولى في المنطقة منذ العام **1908** للميلاد.

وقد اتصف زايد أسكونتي بالذكاء،وقوة الصبر والتحمل،وامتلك عزيمة لا تفل لمجابهة الغزاة، فجعلته تلك الصفات أهل للقيادة،حيث سيعمل أولا على تنظيم الفلاحين والرعاة الرحل في شكل جماعات مقاومة تحمل السلاح،وتعلن الصمود والكفاح ضد المستعمر وأذنابه،وكانت أولى بطولاته التي صنعت اسمه بين صفوف المقاومة الشرقية:

-معركة بوذنيب: والتي دارت رحاها في ماي **1908**،بعدما تقدمت القواة الاستعمارية الفرنسية للسيطرة على الواحات التي تتميز بأهمية استراتيجية بالغة،مثل تيدكلت وتوات وغيرها،متبعة سياسة التطويق ضد القبائل الثائرة والتي هبت بكل عفوية لنجدة أرضها ضد هؤلاء الغزاة، والمعروف أن بوذنيب منطقة محصنة طبيعيا،ولعل اسمها الذي يعني الذنب الممتد على شكل تلال تتصل مباشرة بهضبة كبيرة تشكل خطا لتفرق المياه نحو أنهار المنطقة،يشير إلى ميزتها من حيث الموقع والموضع.

في **13** من ماي كان لبوذنيب موعد مع التاريخ،لما تقدمت نحوها الجيوش الفرنسية مدعومة بفرق الكوم انطلاقا من الحدود الجزائرية، مدعمة بكل الأسلحة الفتاكة لإخضاعها وإخضاع المغرب الشرقي تمهيدا لإرغام المغرب على الرضوخ لعهد الحجر والحماية،كانت تلك القوات يترأسها جنرال شديد البأس يدعى"فيجي".

ولم تلبث القواة الفرنسية إلا زمنا يسيرا حتى دخلت بوذنيب،لكنها قريبا ستلقى أشرس مقاومة هناك بعدما هب قايد المنطقة مولاي لحسن السبعي لتنظيم صفوف المقاومة التي انضمت لها قبائل شديدة المراس كآيت سغروشن،وآيت يوسي،والشرفاء وغيرهم... بل وشاركت فيها قبائل بعيدة عن المنطقة بعدما هبت تلبية لنداء الجهاد،وكان من هؤلاء الملبين المجاهد زايد أسكونتي.

وهكذا اندلعت مواجهة عنيفة بين الفرنسيين والأهالي بقيادة لحسن السبعي،والذي كان عليه أن يواجه أولا المتعاونين مع الاستعمار وعلى رأسهم " عائلة أوفقير"التي اغتنت في المنطقة بدعم من المستعمر،وامتلك

محمد أوفقير تسعة آلاف نخلة وأضحى من كبار الإقطاعيين بالمنطقة،بعد أن أعلن خضوعه لفرنسا منذ العام **1906**م ،ذلك الخضوع الذي سيجعله منه باشا على المنطقة،والتي سيحكمها بكل قسوة وتجبر،ولما توفي هذا المتواطئ أورث ابنه "محمد" الطاعة العمياء لفرنسا،والعداء الدائم لرجالات المقاومة وأعضاء الحركة الوطنية،حيث أعدم منهم الكثير وعذب منهم العشرات إلى أن هلك بعد أن دبر محاولة الانقلاب الثانية ضد الملك الحسن الثاني في العام **1972**م.

قبيل المعركة بثلاثة أسابيع أعد "الجنرال فيجي" خطته للسيطرة على بوذنيب ذات الموقع الهام فدخل مدينة بوعنان في العاشر من مايو **1908**م،ليعلن بعدها بثلاثة أيام بدأ المواجهة مع صفوف المقاومة التي تجمعت للتصدي لقواته،حيث كانت مقاومة باسلة استغلت وعورة التضاريس وعنصر المفاجأة بوادي أورير .

كانت أولى المواجهات التي شارك فيها زايد أسكونتي ضارية،في يوم قائظ شديد الحرارة،فوجئ العدو بوابل من النيران تحيط به،حيث يخبرنا محمد المنوني عن ذلك بقوله**:**"اشتد القتال وكثرت الطلقات المدفعية،والقنابل منها تحصد الناس حصدا،ومولاي لحسن السبعي على بغلته يصيح في الناس ويحرض على الثبات،والزمن زمن صيف،والمكان صحراء،بوذنيب حارة والماء معدوم في بعض الأماكن،التف الناس بهذا وصمدوا في وجه العدو،القتلى تتساقط من القدام والخلف واليمين والشمال،ولا أحد تحدثه نفسه بالفرار استماتة في سبيل الصالح العام**..**" ولعل شراسة هذا الالتحام قد شعر بها الغزاة أكثر من المجاهدين،ذلك ما جاء على لسان أحد ضباطهم الذي قال**:**"لقد دافع المغاربة باستماتة وبشجاعة فائقة،وباستخفاف بالموت**..**"

استبسل زايد أسكونتي في المقاومة وسارع إلى تلبية صيحات مولاي لحسن السبعي التي تحرض على الصمود،وطيلة يومين تكبدت فيها قوات الاحتلال خسائر جسيمة،ولو توفر للمجاهدين القدر الكافي من السلاح لطردوا الغزاة،إذ لم تكن تعوز زايد أسكونتي ورفاقه المجاهدين الشجاعة

إنما فارق الإمكانات العسكرية هو الذي جعل أسكونتي ومعه الزعيم صاحب البغلة البيضاء وبقية المجاهدين ينسحبون في ليلة الرابع عشر من مايو **1908**م من بوذنيب بعد أن نفذت منهم الذخيرة إلى خارجها تمهيدا لمواصلة الجهاد.كانت الخطة هاته المرة الاعتصام بالجبال،والتحصن بالتلال حيث سيخوض زايد أسكونتي مع رفاقه معركة شرف أخرى لا تقل أهمية عن بوذنيب.

-معركة تاردة: أدرك المجاهد زايد أسكونتي بعد معارك بوذنيب أن هذا المستعمر المسلح بالحديد والنار،لا يمكن مواجهته إلا بالاستغلال الأمثل للتضاريس،وتوظيف الذكاء الفطري لمباغتة العدو ومحاصرته والإطباق عليه بشكل مفاجئ،وعدم مواجهته في مجال مفتوح وإلا سيعتبر ذلك ضربا من الانتحار الجماعي لفارق العدة والعتاد بين المجاهدين الذي لم يكونوا في الغالب يملكون إلا بنادق البارود وجيش فرنسي حديث.

وهكذا انسحب زايد أسكونتي لينظم حملة جهادية لجمع الرجال،وأطلق نداءاته التي استجاب لها أهالي درعة وتافيلالت،حيث سيقود أسكونتي معركة تاردة بعد أن استنفر حوالي أربعمائة مجاهد من آيت مرغاد وآيت حمو..وقد تمكن المجاهدون حينها من الانتصار على الغزاة وقتل قائد الطابور الفرنسي،وحينها تقهقرت قوات الاحتلال منسحبة لقواعدها، لكنها تفاجأت بقدوم المجاهدين من كلميمة الذين استجابوا لمعارك الشرف التي نادى بها المجاهد زايد أسكونتي.لتنتقل المقاومة إلى الجبال الشاهقة حيث ستخوض إحدى أشرس المعارك التي سطرها التاريخ وخلدتها الحكاية الشعبية.

-معركة جبل بادو: تشكل أعنف المواجهات التي خاضها زايد أسكونتي وأبلى فيها المجاهدون البلاء الحسن،فلما حاصرت القوات الفرنسية القبائل الثائرة مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين، وحيث أن ها ته القوات الفرنسية ورغم عتادها الضخم لم تتمكن من السيطرة على المنطقة منذ أن وصلت بوذنيب في العام **1908**،بل ظلت تكتفي بالثكنات العسكرية الشديدة

الحراسة التي تحصنت فيها من هجمات المجاهدين والتي لطالما كبدتها الهزائم النكراء.

ولما دخلت القواة الفرنسية الفجاج المحيطة بجبل بادو في غشت من العام **1933**م،اتجهت القبائل برجالها ونسائها نحو صعود جبل بادو ذو الموقع الحصين قصد الاستمرار في مقاومة المحتل والاحتماء بالكهوف والمغارات التي يوفرها هذا المرتفع الشاهق،بعدما تلقت ثلاث فيالق من جيوش الغزاة الأوامر بالزحف على منطقة "أغبالو نكردوست" وتطويق المناطق الشرقية للأطلس الكبير، تحت القيادة العامة للجنرال"هوري".

هذا الجنرال الذي كان قد عقد مفاوضات استسلام البطل عسو أوبسلام في مارس من العام نفسه،بعد أن استنفذ قائد ملحمة بوغافر كل الأسلحة المتوفرة وفضل تحت قصف الطيران الفرنسي حياة النساء والأطفال على الاستمرار في المقاومة.وما كانت له ببال أن تندلع في وجهه مقاومة أخرى قادها زعماء ممن رفضوا الاستسلام بعد بوغافر،وكان من ضمنهم قائد آيت عيسى إزم،قبيلة آيت مرغاد"المجاهد زايد أسكونتي".

صورة تؤرخ لزحف الفرنسيين ومعهم قوات الباشا الكلاوي نحو جبل بادو في العام 1933م

في أوائل غشت **1933**م،أمر الجنرال "هوري" قواته بالزحف على بادو انطلاقا من موقعها بأغبالو نكردوس ،فالتحمت القوات الفرنسية المهاجمة

في مواجهات ضارية مع المجاهدين المتحصنين بجبل بادو،وقد أبان مقاومي الجبل عن شجاعة منقطعة النظير،وروح قتالية عالية رغم قلة الزاد والسلاح وتفوق الغزاة،بل وأذاقوا المهاجمين خسائر فادحة في الأرواح والعتاد.

وقد كان على رأس قادة المجاهدين زايد أسكونتي الذي اعتبر القائد العام لمعارك جبل بادو الشهيرة،يعينه القائد علي أوطرمون قايد زعيم زاوية آسول،بالإضافة إلى الفقهاء والعلماء والشيوخ،وهم يحثون على الجهاد ويبرزون فضائله،وكثير منهم كان يستشهد بشعر"هرو واسو" تلك المرأة العطاوية التي أنشدت شعرها بمرارة لما استسلم المجاهدون أخيرا في بوغافر،حيث قالت:

حينما صعدناك يا صاغرو

كان النبي في مقدمتنــــــــا.

وحينما نزلنا جبل صاغــــــــــرو

تركنا النبي بالجبل.

أبى أن يرافقنا ويزكي انهزامنا

كان على زايد أسكونتي أن يواجه الاستعمار ومتعاونيه وخططه الرهيبة لإضعاف روح المقاومة بعدة أساليب خبيثة منها:

-استمالة زعماء بعض القبائل بالمال والجاه عن طريق شراء الذمم.كما فعلوا من قبل مع محمد أوفقير وبعض زعماء الزوايا الذي سهلوا مهمة الاستعمار.

-فرض حصار خانق عن طريق نهج سياسة الأرض المحروقة لتجويع المجاهدين وإرغامهم على الاستسلام،لكن قائد المقاومة زايد لم تكن فكرة الاستسلام تدور في خلده على الإطلاق.

-استعمال القصف الجوي العنيف،الذي يحرق المحاصيل،ويقتل الماشية ويزهق أرواح الأبرياء في حرب غير متكافئة،تماما كما فعل في

بوغافر،حيث كان السلاح الفتاك الذي أرعب المقاومة ووقف أمامه المجاهدين عاجزين عن المبادرة.

وكان المجاهد زايد أسكونتي ممن أرادت فرنسا استمالته ليوقف جهاده،وأغرته بمال الدنيا، لكن الرجل كان ممن باعوا أنفسهم للآخرة،رجل من طينة أخرى ذو عزيمة لا تفل،حتى في ظل استفحال الخونة والمتعاونين مع الاحتلال،وندرة السلاح ونفاذه بسبب الحصار..وهو في هذا الضعف كان على الفرنسيين أن يبادروا هم بالتفاوض،حدث ذاك في صباح **24** من غشت **1933**م،حينما توقف القتال فجأة ونشرت القيادة الاستعمارية خبرا بقول أن المفاوضات ستبدأ بين زايد أسكونتي والجنرال "جيرو"عما قريب.

انتظرت قيادة الجيش الفرنسي المجاهدين لينزلوا من جبل بادو طيلة ذلك اليوم،لكن زايد ورفاقه آثروا الاستمرار في حمل السلاح "ومرافقة النبي" حتى جلاء الغزاة،هؤلاء الذي جن جنونهم بحيث أمر الجنرال هوري فجر الغد **25** غشت بشن هجوم كاسح مستهدفا "اسكرسو" مقر قيادة زايد أسكونتي،هذا الأخير كبر مع مجاهديه وتصدوا للمهاجمين ،كانت مواجهة رهيبة وعجيبة بحيث تحكي الروايات الشعبية أن أبطال الجهاد بالغوا في الاستماتة إلى حد أنهم اشتبكوا مع الفرنسيين بالسلاح الأبيض،سكاكين وسيوف وخناجر غرزها أسكونتي ورفاقه في صدور المحتل ومتعاونيه من الكوم المغاربة.

-أية روح امتلكها هؤلاء المجاهدين حتى ينقضوا كالصقور على أعدائهم بجعاب بنادقهم،وخناجرهم مفضلين الاستشهاد نصرة للأرض والعباد **!!**

-وأية شجاعة اتصفت بها يا زايد أسكونتي حتى تأمر رفاقك بمغادرة كهوفهم وأسلحتهم بنادق بدائية،وسكاكين يدوية،في مواجهة جيش بأكمله مدجج بأشد الأسلحة فتكا في ذلك العهد **!!**

ظلت المعركة قائمة طيلة الليل،حتى صباح **26** من غشت حيث نفذت أسلحة المجاهدين،بينما الجيش المحاصر يستخدم في حصاره المدفعية والرشاشات والطائرات،وكل تلك الأسلحة التي استخدمها في الحرب

العظمى وبعدها في القضاء على مقاومة الريف بزعامة سيدي عبد الكريم،وفي ظل ها ته المعطيات غير المتكافئة نزل زايد أسكونتي أخيرا من مخبئه بجبل بادو ليجد في استقباله الجنرال الفرنسي"جيرو" والذي رغم قسوته وجبروته إلا أنه كان يكن نوعا من التقدير لأعدائه خاصة أولى الشهامة منهم.

على مضض،ولكي يجنب الأهالي الأبرياء الموت المحتم،ويحقن دماء الصبايا والأطفال،والنساء والعجزة آثر المجاهد زايد أسكونتي الانحناء للعاصفة،لكنه ظل كجبل بادو الذي كان يحتمي به،شامخا مهاب الجانب لا يلين لعدو...يحكي الروائيين أن الجنرال الفرنسي استقبل أسكونتي المجاهد بحفاوة كبيرة،وسر أيما سرور بنزول" أسد الجبل" أخيرا من عرينه،وسيظل المستعمر يهابه حتى يدبر حيلة لينهي حياته.

كان انحناء زايد أسكونتي للواقع،تعبيرا عن ما تحدثه فوارق الإمكانات العسكرية وقلة الدعم والسلاح وليس تعبيرا عن ضعف الهمة في الجهاد،فذلك قبس من نور لم يخبوا عند زايد وممن هم على شاكلته،بعدما قاد المجاهد أسكونتي أشرس المعارك هناك بالأطلس الصغير وما وراء الأطلس الكبير،وكانت بحق مقاومته آخر محطات المقاومة المسلحة المغربية التي أسدل عليها الستار بعد بادو الشهيرة.

بعدها سيختفي زايد أسكونتي من مسرح الأحداث،بعدما فرض الاحتلال لغة القوة على المنطقة،ودفع بالخونة والمتعاونين إلى مراكز القيادة والسيادة والنفوذ مكافأة لهم وضدا في بني جنسهم،انزوى صاحب النفس الكريمة بعيدا،لكن روحه ما خفتت وعداءه للمستعمر ظل قائما، ذلك ما شعر به عملاء الفرنسيين وأبلغوا أسيادهم بضرورة التخلص من زايد أسكونتي الذي أشيع أنه عاد للجبال"مركز عزه ومقر سطوته" حاملا للسلاح من جديد،ومرعبا جيشا بأكمله.

غير أن عيون المستعمر ها ته المرة ستعمل على توظيف السلاح الفتاك الذي بحوزتها،وعوض تجريد مفرزة لمطاردة أسد الجبل أسكونتي وما

يرافق ذلك من مخاطر مميتة على جنود أضحى الجبل يشكل لهم الرعب، ومجرد النظر لأعلى يصيبهم بالغثيان،حينها جند الفرنسيون يدا خائنة وعميلا من عملائهم،يتكلم لغة زايد أسكونتي وينهل من نفس ثقافته،وإن كانت الفوارق بين الهمم تضاهي الجبال.

لم يلبث الخائن الجبان أن صعد نحو مقر زايد أسكونتي،مدعيا الجهاد مع البطل الشهم،ومصدرا كيلا من الشتائم للنصارى أعداء الدين والملة،وكما وثق المولى إدريس الأكبر بالشماخ،وثق زايد برفيقه الخائن،فالشرفاء عادة ما تكون نواياهم صادقة حتى تجاه أعدائهم،ذلك ما حدث للمجاهد أسكونتي ،ففي منتصف العام **1944**م،وبينما كان زايد ينظر من أعلى جبل "بروج" بمنطقة مسيد

على مقربة من آيت ابراهيم،وهو يرنوا ببصره نحو جبل بادو الذي شهد قمة مجده،إذا بالعميل الخائن يدفع الشيخ البطل بكلتا يديه وبأقصى ما يملك من جبن وحقد وقلب أسود..يتهاوى بعدها زايد أسكونتي نحو هوة سحيقة،غير أن روحه كانت قد صعدت إلى السماء حتى قبل أن ينزل جسده على الأرض،كانت تلك هي روحه:

-روح أسد للجبال لا تعيش إلا حيث الارتفاع الشاهق،ولا تأبى غير العلو مسكنا والنسور رفقة.

-ونفس ثائرة تعشق الحرية وترنوا نحو الأعالي،حيث الارتفاع راحة لها،والقمم عشقها الأبدي.

طيلة يومين متواصلين استمرت المواجهة ضارية بين المجاهدين والقوات الفرنسية،واندلعت معارك عدة أهما أورير ومسكي..هناك على ضفة وادي كير،وأسفرت المواجهة عن خسائر جسيمة للغزاة،حيث قتل حوالي **43** من الفرنسيين والكوم،منهم خمسة ضباط سامون،بينما جرح حوالي **65** .أما عدد المجاهدين القتلى والجرحى فظل في طي المجهول.

*الحكاية السادسة:

زايد أوحماد:آخر المحاربين بجبال الأطلس

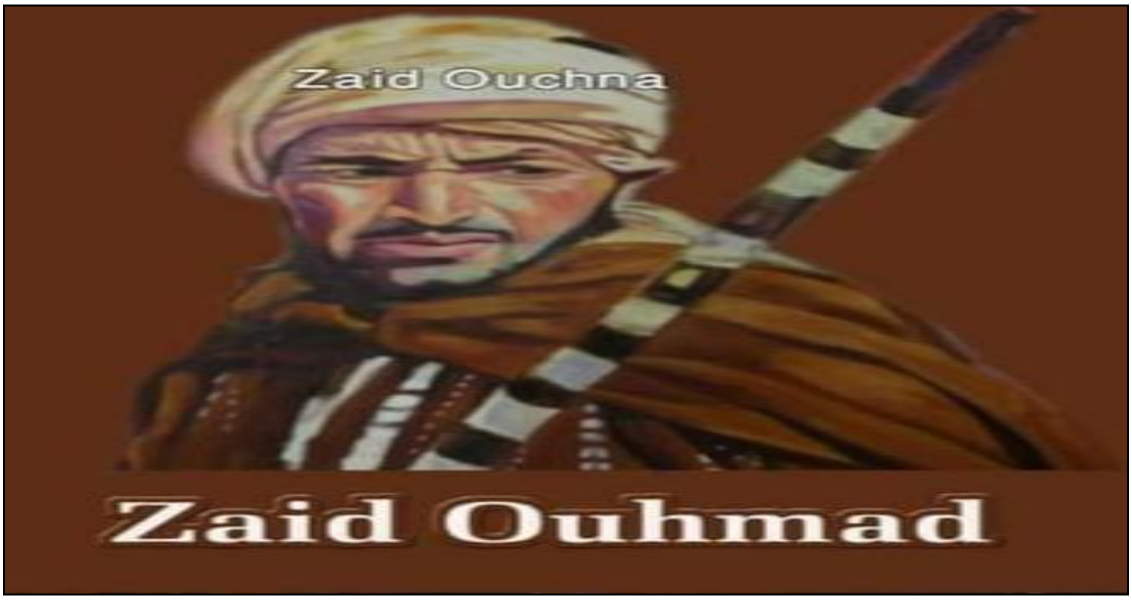

(الصورة للثائر زايد مأخوذن من ملصق فلم"الشرف" الذي يحكي سيرة الشهيد)

لا شك أن "ملحمة بوغافر" ستظل محطة فارقة في تاريخ قبائل ما وراء الأطلس الكبير،بعدما وقف ألف ومائتي محارب في وجه جيش غازي اعتبر حينها أحد أشد جيوش الأرض تطورا لاعتبارات شتى منها:

-خروجه منتصرا في الحرب العظمى التي دارت رحاها بأوربا مابين **1918/1914**م.

-مساهمته الفعالة في إنهاء "ثورة الريف" بزعامة سيدي عبد الكريم في ماي **1926**م.

-قضاءه على ما تبقى من المقاومات المسلحة المغربية بعديد المناطق كزيان،والصحراء والشاوية...

لكل تلك الأسباب ظلت"بوغافر" ذاكرة حية في نفوس م حملوا السلاح فيها وكبدوا الغزاة الخسائر تلو الخسائر،وحتى لما آثر قائدها "عسو أوبسلام" حقن دماء قومه على الاستمرار في حرب غير متكافئة تماما،وفضل على مضض النزول من مخبئه بالجبل الشامخ،كان قد نزل معه رفاق السلاح والكثير منهم لم تكن ترقه فكرة الاستسلام ولا مهادنة العدو مهما كانت قوته ومهما بلغ جبروته.

وقد كان بطلنا زايد أوحماد من ضمن هؤلاء الذين خرجوا من مخابئهم بالمرتفعات ووافقوا مضطرين على الانحناء للعاصفة،وإن صعب عليهم الرضوخ للأمر الواقع،هذا المستجد الذي أضحى بعد بوغافر واقعا مريرا،فما لبث زايد أن حمل بندقيته وصعد الجبل من جديد،ها ته المرة كان الموعد مع معركة أخرى طاحنة تلك التي دارت أطوارها ما بين ....من العام **12933**م،هناك في جبل بادو،هذا الجبل الشهم والذي ستحمل المعركة اسمه.

إن حكاية زايد أوحماد من الملاحم الخالدة،وقصة ثورته لن تنساها ذاكرة أهالي المغرب الجنوب الشرقي،كما أن ما قام به من بطولات أرعبت

الفرنسيين ومتعاونيهم وقضت مضجعهم حتى كتبت عشرات التقارير والمقالات حول هذا البطل الذي ارتقى حينها مصاف الأسطورة،وسنحاول أثناء سردنا لحكايته الخالدة أن نعتمد على الرواية الشعبية والأرشيف الفرنسي لعلنا نلمس حقيقة ما كان زايد أوحماد وما فعل حتى استحق كل هذا الاهتمام من أهله وأعدائه:

-تقول الحكاية الشعبية عن زايد أوحماد:

في نهاية القرن التاسع عشر،أي حوالي**1885**م ولدت "بقْصر إقدمان" بمشيخة آيت مرغاد، تلك القبائل التابعة لدرعة تافيلات،كنت كما علأهلي فتى أبي النفس كريمها منذ نعومة أظافري،أرفض الخضوع والمذلة حتى بين أقراني ونحن بعدها لم نبلغ الحلم،يكاد يتحول لعبنا بجريد النخل وبلح التمر-الذي اشتهرت به أرضنا منذ ومن- يتحول لعبنا إلى أشبه بعراك حقيقي على من ينتصر في جولات الصبا وعنتريات الطفولة.

وكثيرا ما كان أقراني ينعتونني"بالمصوب الذي لا يخطئ" استنتجوا ذلك من خلال دقة رميي للبلح على رؤوسهم حتى وهم مختبئين في قمم الصخور أو سفوح الوديان العميقة،إنها طفولتي التي كانت في مجملها بسيطة هادئة،لم تسلط عليها الأحداث ولم يكن ليذكرها أحد خارج آيت مرغاد لولى أن حياتي تزامنت مع الغزو الآتي من بلاد النصارى كالسيل العرم نحو أرضنا المسالمة.

ولما تجاوزت مرحلة الصبا وبدت عضلاتي تستطيع مواجهة وحوش البرية التي يتصارع معها الرعاة للحيلولة دون أن تفترس مواشيهم حينها سلمني أهلي قطيعهم الصغير والذي كان رأس مالهم مع بضع نخلات ورثتها أسرتي كابرا عن كابر.كانت تلك النخلات الباسقة تروى من مياه نهر غريس، حيث تعلمنا السباحة هناك من هذا النهر الواهب للحياة بالمنطقة.

علمتني قطعاني كثيرا من الصفات الحميدة،كان الصبر على تحمل المشاق أهمها،وتلك صفة لم تكن ليتحلى بها الإنسان لولى مجاورته للماشية،وربما

هذا هو السر الذي جعل الله تعالى رسله عليهم السلام "رعاة قبل أن يصيروا هداة".

أما بعد الصبر فكان أمر آخر لا يقل أهمية،إنه التحدي الذي يواجهك وأنت وحيدا وسط التلال أو في قمة الجبال وأنت أعزل إلا من عصى تهش بها على غنمك،إذ بالذئب يهاجم ماشيتك على حين غرة،فيسري الرعب حينها في جسمك وتعجز في الوهلة الأولى عن إصدار أية ردة فعل لما يتجمد الدم في شرايينك..لكنك سرعان ما تستجمع قواك وتحمل عصاك لتهوي على رأس أمه أو تضيق عليه الخناق حتى يولي هاربا من حيث أتى...

وكذلك سيكون الأمر في قصتي لما حملت البندقية مكان العصى حينما استبدل الذئب الذي نعرف بذئب آخر لا يقل عنه وحشية،هذا الذي أراد التهام قطعاني وعهم أهلي فهببت حينها أهوي عليه بسلاحي حتى ألجأته لوجاره مختبئا ذليلا طيلة ثلاث سنوات بعد "ملحمة بوغافر".

-تقول مصادر العدو الفرنسي:

وسنعتمد هنا على ما حكاه الأستاذ ميمون أم العيد حول الوثائق الفرنسية التي تحدثت عن بوغافر وزايد أوحماد،هي عبارة في معظمها عن تقارير عسكرية غير منشورة،ظلت في طي السرية وهي موجودة حاليا في إحدى مكتبات مدينة "نيس":

*مرحلة ماي /يوليوز **1934**م:"تخصص زايد أوحماد في تهريب الأسلحة والذخيرة في شتاء هذه السنة،إلا أن التدخلات الفرنسية السريعة وضعت حدا لنشاطه التجاري،فوجد نفسه بعدها غارقا في ديون،كما تبقت له ذخيرة مهمة وبندقيتان".

"لم يتبقى أمام زايد أوحماد سوى العودة إلى حرفته القديمة كقاطع طريق لإيجاد حل لتسوية الديون التي تراكت عليه،وذلك بتنسيق مع قطاع طرق آخرين منهم "أومرخوش وأوهزا"،وكذلك بعض أصدقائه منهم" موحى أوعلي،وتاشنات من إمضغاس،موحى علي من أسول،وحمو من تانا... "

-تقول الحكاية الشعبية:

"كنت فتى ذا نباهة وفضول،أحضر مجالس كبار القوم،يعنيني ما يعنيهم، حتى وأنا بعد صغير السن قد ألهبني الحماس الكبير الذي خلفته زيارة السلطان العلوي"المولى الحسن الأول" لمنطقتنا في العام **1893**م،بعدما تركت صدى طيبا وأضحت حكاية وجوده بيننا ذكرى سنوية نستحضرها أطفالا وشيوخا ونساء.كان بحق كما وصف لي"السلطان الذي كان عرشه على فرسه" وكثيرا ما سمعنا عن "حرْكاته التي تكاد لا تنتهي" .

وقد لاحظت وأنا أرعى الغنم أنه لما وصلتنا أخبار وفاة المولى الحسن لم تعد الأوضاع كما كانت عليه من الاستقرار،فأضحينا نسمع عن جماعات تقطع الطريق،وأخرى تخصصت في النهب والسلب،وعن قبائل تغزو بعضها البعض في واضحة النهار دون حسيب ولا رقيب،لقد فقد المخزن هيبته بعد مغادرة ذاك الحاكم القوي،كنت ألمح وأنا أرافق غنمي فوق أعالي نهر غريس وواحات تدغة وفركلة أن زمن السيبة قد حل بالقرب منا،وأن انفلاتا أمنيا صار يتهددنا ويتهدد قطعاننا، حينها رفعت من منسوب يقظتي،وشمرت على ساقي رفقة باقي الرعاة أصدقائي،دفاعا عن العرض والأرض.

"ولما أطل علينا العام **1907**م كان الغزاة النصارى قد اقتربوا بجيوشهم عللى أرضنا،ساعتها تركت غنمي وكانت المرة الأولى التي أفعل ذلك،واندفعت مع رفاقي مستجيبا لنداء الجهاد الذي رفعه مولاي أحمد السبعي،وحينها أظهرنا للمحتل بأسنا وشدة استماتتنا،كان ذلك بالخصوص في معركة "بوذنيب من العام **1908**م"..

كان علينا أن نواجه عدوا من بني جلدتنا لا يقل خبثا عن النصارى،باشا مراكش التهامي الكلاوي والذي سلطه الاستعمار على رقاب الناس فاستفحل نفوذه وتعالت سطوته،بعدما سخر أتباعه الكثر اجمع الضرائب وإثقال الأهالي بأعمال السخرة والسطو على الأراضي والممتلكات..شاهدنا ذلك

بكل قسوة حينما تم تسخير أفراد قبيلة "تدغة"بأكملها في تشييد قصبة خليفة الكلاوي بتدغة.

ولما استفحل القهر بتدغة أرسلت لنا نحن آيت مرغاد- وكنا جيرانها الشماليين بطلب المساعدة، فسارعت بمعية المجاهدين من قبيلتي نحو تدغة،كما هبت معنا آيت عطا بعديد رجالها حينها حاصرنا نفوذ الكلاوي وأتباعه وأذقناهم الويلات هم وأسيادهم الفرنسيين الذي كانوا يتحصنون في عدة مواقع عسكرية بوادي غريس وواحات وارزازات ودادس".

-تقول مصادر العدو الفرنسي:

"من يونيو إلى غاية منتصف أكتوبر **1934**م،وفي هذه المرحلة تم تحديد هوية(زايد أوحماد) من طرف السلطات الفرنسية،حيث كان يستهدف شخصيات فرنسية بالمنطقة،لكن رجال الاستعلامات لم يكونوا يعرفون بأن ذلك القتل المتسلسل لشخصيات فرنسية ومغربية موالية لفرنسا إنما كان من توقيع مقاوم من قبائل آيت مرغاد اسمه زايد أوحماد".

"تم تحديد هوية زايد أوحماد،وقد عرف بأنه لن يستطيع أبدا أن يعود إلى بيته في مسقط رأسه،حيث أصبح بطلا ورمزا،وحيث يجد التشيج من كل الذين يخالطهم".

"يتحرك زايد أوحماد بحذر شديد في هذه الفترة،يتحاشى ربط علاقات مع أشخاص جدد لم يكن يعرفهم بشكل مسبق،وكان فقط يتعامل مع رجال يعرفهم منذ زمن بعيد،والأشخاص الذين ضمنهم شخص من أصدقائهم الذين يثق بهم".

تقول الحكاية الشعبية:

"لما تقدمت قوات العدو نحو قبائلنا وطوقت جبال صاغرو من كافة الجهات،حيث تدفقت جحافلهم من نادلة وقصر السوق ومكناس ومن مراكش رفقة أتباع الكلاوي آثر المجاهدون الصعود نحو جبل بوغافر،وحينها سنسطر معا إحدى أروع الملاحم الخالدة:

-**1200** مجاهد ومجاهدة.ليس لهم إلا البنادق والخناجر سلاحا.

-**40000** من القوات الفرنسية بمدافعهم ورشاشاتهم وطائراتهم.

رسم تذكاري يؤرخ لملحمة بوغافر ولقائدها عسو أوبسلام

ومع ذلك فقد تصدى عسو أوبسلام وزايد أسكونتي وسيدي الطيبي وعدجو موح وغيرهم لغطرسة المستعمر وأسقطنا منهم الآلاف بين قتيل ومعطوب إلى أن أخل سلاحهم الجوي بموازين القوى فسارع أوبسلام إلى النزول من ملجئه بالجبل الشاهق مفضلا الهدنة مع الغزاة على الاستمرار في قتال محموم لم يستثني شيخا مسنا ولا طفلا رضيعا."

"نزلت مع المجاهدين على مضض،ألقيت السلاح مضطرا،راضخا لأوامر قائدنا عسو أوبسلام،لكن نفسي الثائرة سرعان ما حركها الضيم مجددا، وسارعت إلى جبل بادو في صيف العام **1933**م لأحمل السلاح مجددا في وجه أعدائنا،ها المرة كان القائد"زايد أسكونتي" والذي تشابهت معه في عديد الصفات منها:الإسم الواحد والمصير الواحد".

"بعدها بزمن يسير انضممت لثورة سيدي الطيبي وواجهنا الفرنسيين وفرقهم المرتزقة في معارك طاحنة كان أبرزها:

-"معركة كردوس" وهي المعركة التي وقعت منتصف العام **1934**م وشارك فيها مجاهدون من عدة قبائل،كان القاسم بينهم هو رفضهم للهدنة التي وقعت مع النصارى بعد بوغافر وبادو،حيث تحصن سيدي الطيبي بقلعة"كردوس" ومنها انطلقنا نجاهد العدو ونعيق تقدمه..كان هناك مجاهد قديم قد هب

لنصرتنا،سليل أسرة عالمة زاهدة،الابن الثاني عشر للشخ ماء العينين وشبيه والده قامة وعلما وخلقا"مربيه ربه"..هذا المجاهد الذي واجه من قبل الغزات الفرنسيين والباشا الكلاوي في عديد المعارك وسيظل كذلك على العهد حتى حينما ستسقط"كردوس" ويفضل هو الرحيل نحو الصحراء،كانت كلماته التي نطق بها بالقلعة المحاصرة مثالا واضحا على صدق سجيته حينا هتف في المجاهدين ممن حوله"سأظل أجاهد فرنسا ولو لم يبقى معي إلا عصاي مادام بالإمكان صدهم عن شبر من هذا الجزء من بلاد الإسلام".

"إنها الكلمات التي نفذت في نفوسنا كالبلسم الشافي،فاشتاقت نفسنا لرائحة الجنة،وانطلقت بنادقنا تصوب فوهاتها نحو صدور أعدائنا،ولم أتمالك نفسي وأنا أهب مندفعا بلا حماية حتى أصابتني رصاصة من سلاح رشاش،فسقطت أرضا والدماء تسيل مني،بينما تلقيت خبر آخر أنسى ما بي من جروح لما أخبروني أن زوجتي"تاعليت" قد فارقت الحياة هي كذلك متأثرة بإصابات مميتة تلقتها من القصف الجوي الذي سلطه الفرنسيون على "قلعة كردوس".

-تقول مصادر العدو الفرنسي:"المرحلة الثالثة من منتصف أكتوبر **1934**م إلى الخامس من مارس **1936**م:

"تم توقيف كل من أومرخوش،موحى بوعلي،تاشنات وغيرهم،إلا أنه تم تسريح أوزايد بعد ثمانية أيام من اعتقاله...وبغرض الدعم المعنوي للتمرد،قام زايد أوحماد بتنفيذ اغتيالات مجانية لن يربح منها شيئا،لكنه يهدف من خلالها إلى إنعاش مخيال الناس عنه،وذلك بقتل عسكريين في منطقة واوكودن،وقتل الملازم الأول "تريستاني"وتصفية شيخ آيت أريتان بعد اتهامه بكشف أصدقاء زايد أوحماد،وتصفية أفراد من فيلق تنغير،وقتل الملازم "فورمانتين يوم **09** أكتوبر **1935**م".

"في ربيع **1935**م جدد زايد أوحماد علاقته بمجموعة من الأشخاص،من بينهم ثلاثة رجال من إكناون،قتلوا في تادفالت،كان قد تعرف عليهم قبل الدخول الفرنسي للمنطقة...ويبدو أنه من خلال هذه الفترة ضاعف من علاقته

بأشخاص كثر،لكن التواصل معهم بالنسبة له طموح غير معقول،فأغلب "المجرمين"والمقربين أموات في الوقت الحالي،بعضهم قتل(أومرخوش-موحى أوعلي-موحى حمو-يوسف أوبرحو...)وبعضهم انتحر حتى لا يعترف بأي شيء،والذين بقوا أحياء يشهدون بأعينهم طفرة حقيقية".

"إن المسمى أوتراوت،مرافق زايد أوحماد في تيمزراي،والذي أسدى خدمات كبيرة قبل وبعد مقتل "قاطع الطريق زايد أوحماد" تم إبعاده من هذه اللائحة،فهو قد أصبح الآن يشتغل مخزنيا في أسول".

"تجدر الإشارة إلى أن زايد أوحماد كان على علاقة وطيدة بأيت عطا أوسيكيس،وآيت عطا صاغرو،وكان دائم التردد ب تانا،أيت تدغت،أسول،كما كان مرحبا به عند آيت عطا الذين يشكلون نصف الأصدقاء الذين يخالطهم."

تقول الحكاية الشعبية:

"بعد فقد زوجتي واستسلام زايد أسكونتي،عدت إلى مسقط رأسي مكسور الخاطر،مجروح الكبرياء تواريت عن الأنظار زمنا يسيرا،ثم أشرفت من نافذت بيتي والألم يعتصر قلبي،كنت أشاهد عن قرب تحركات الغزاة الفرنسيين،وأنظر بمرارة سوداء أفرادا من قبائلنا وبني جلدتنا وهو يسدون الطاعة العمياء لأسيادهم النصارى من أجل حفنة من مال زائل أو منصب يؤكد تلهفهم حول فتات الدنيا،أكثر ما كان يغيضنا ويجعلني أرغب بشدة لو كان معي سلاحي حينما كنت ألمح الآليات العسكرية وهي تدوس على الحقول وتتلف المحاصيل-مصدر عيش القبيلة الوحيد-بينما يشتد قادة الجيش والمتعاونين معهم على كل فلاح فقير أبدى مجرد ردة فعل على أرضه المستباحة،كانت الغطرسة عنوانا لسلوكهم،والانتقام من بوغافر وبادو دافعا لعنفهم الذي فاق كل حد".

"مضت الأيام رتيبة حزينة،الضيم يكاد يقتلنا،والفقر بلغ بنا مبلغا عظيما لما انتزعت منا حقولنا وبعضا من مواشينا،فاضطر الكثير منا للإشتغال عند النصارى عمالا في الحقول أو في البناء،ولما كنت قد أصبحت وحيدا بعد

مقتـل زوجتي،قـررت أن أتـزوج مجـددا حتـى ألملـم بيتـي وأعيـد لـه الـدفئ المطلوب،عقـد القـران بسـيطا بحضـور عـدد قليـل مـن أفـراد عـائلتي وأصدقائي،في حين كان علي أن أستجيب فورا لاستدعاء من المشـرف علـى العمل والذي يبدو أنه سمع بخبر قراني فـآثر أن يـنغص علـي ها تـه الفرحـة المؤقتة لغاية في نفسه الخبيثة".

"وقد غادرت مسرعا نحو مكان العمل،حيث كنـا نشـتغل فـي مـد جسـر علـى أحد الجبال،حتى ملابس العرس البيضاء لـم يتسـنى لـي الوقـت لتغييرها،هذا الذي جعل رئيس العمل يجن جنونه،وحينها سيدشن هذا الخبيث محطة أخرى من حياتي النضالية،فما إن رآني على تلك الهيئة حتـى سـارع بسـبي وشـتمي أمام الملأ،بـل وجـذبني نحـوه بقـوة وصـفعني علـى وجهـي بأقسـى مـا تكـون الكراهية،لم يكتفي بذلك فقط بل مزق ثيابي في وقت كـان علـي أن أهـدئ مـن أعصـابي قـدر المسـتطاع،وأنحني للعاصـفة حتـى أضـرب ضـربتي الكبـرى وأثور لكبريائي المخدوش".

-تقـول مصـادر العـدو الفرنسـي: يومـه **03** أبريـل **1936**م،تقريـر لعسـكري فرنسي اسمه أليكس:

"يسرني إخباركم أن موحى وعلي وْتاشنات،قد ذكر بعض الاعترافات بشـأن زايـد أوحماد،كمـا أشـار القبطـان هنـري فـي تقريـره السـابق بشـأن علاقـة وْتاشـانت بأوحمـاد..وفي غفلـة مـن الحـراس قـام مـوحى بجـرح حلقـه،ولفظ أنفاسه متأثرا بهذه الجروح يوم **15** أبريل".

"زار زايد أوحماد بيت علـي وْتاشـانت ثـلاث مرات،أكتـوبر **1934** م،وينـاير **1935** م،وأكتوبر **1935** م،وكان موحي وعلـي يسـكن فـي منـزل صـغير فـي قْصر أيت عبد السلام،وفي ذلك البيت استقبل هذا اللص".

"تتقل مصادر العدو هنا اعترافات مزعزمة لموحى وعلي:جاء زايـد أوحمـاد ليلا،اقترب من الحائط الخارجي للقْصر،ورمى بعـض الأحجـار علـى سـطح بيتي،وخرجت لأفتح له الباب ودخل...أما في المرة الثانية التي جاء فيها زايـد فقد كنت مسجونا في بومالن،ولم يكن في البيت سوى أمي وزوجتي،كان ذلـك

في يناير **1935**م،جاء زايد أوحماد ليلا ،رمى بعض الأحجار على سطح البيت،لكن زوجتي وأمي تملكهما الخوف،فهربتا دون إقفال البيت نحو بيت سيدي احمد أوعْمامو،فدخل زايد لقضاء ليلته في بيتي المفتوح".

تستمر وثائق العدو في بحثها الجنوني عن الشبح زايد أوحماد ويبدو أنها قد نحت تماما نحو معاقبة أي شخص تم التشكيك في علاقته بزايد أوحماد"قْصر أيت عبد السلام،بحسب ما يبدو من التصميم بناية شاسعة،بها ممر مركزي تطل عليه أبواب بيوت الساكنة كلها،وكي يصل زايد أوحماد إلى بيت موحي وعلي لا بد له أن يمر بغالبية أبواب المنازل،ومن المستحيل ولو ليلا،أن يكون عابرا بالممر دون أن يلتقي شخصا واحدا...وعلى الرغم ن إنكار الناس،ففي اعتقادي،فإن جميع ساكنة القْصر على علم دقيق بأن زايد أوحماد تمت استضافته من طرف موحى وعلي،لذلك فإني أرى بأن جميع السكان يستحقون عقابا،وأكثرهم جرما ثلاثة أشخاص هم جيران حوحي وعلي:

-ميمون أوعلاموش: كان شيخ القبيلة في **1934** م ،و**1935** م،لا يمكن أن يجهل ما يحدث بمنزل ابن شقيقه،ويسكن قْصر مجاور لقْصر آيت عبد السلام،العقوبة كانت :سنتان سجنا وثلاثة آلاف فرنك غرامة.

-باسو أورعْبيض: كان مقدم القْصر ،ويوجد منزله بين منزل موحى وعلي،ومنزل أوعمامو،كما أن ثقبا يوجد في حائط المنزل يمكنه من رؤية مزل موحى وعلي،حيث أقام زايد ثمانية أيام،وهذا يؤكد أن باسو كان على علم بما حدث،العقوبة:سنة واحدة سجنا،وألف فرنك غرامة.

-عدي وعلي أورعْبيض،أخ باسو،هؤلاء الاثنان ملتصقان،وغالبا فإن باسو توصل بأسرار من شقيقه،العقوبة:سنة واحدة سجنا،وخمسمائة فرنك غرامة.

تقول الرواية الشعبية:

"لما لحقت بي الاهانة،وداس الخبيث على كرامتي،انتظرت حتى مرت تلك الساعات الثقيلة التي تفصلني عن إتمام عملي الشاق،ولما عدت إلى بيتي كنت قد عقدت العزم إلى العودة للجبال،فقد شدني الحنين إلى أيام الجهاد

ببوغافر وبادو لما كنا كالصقور الحرة ننقض على أعداءنا لولى نفاذ الذخيرة وقلة الحيلة،ولما عدت إلى عريني حيث شممت رائحة الحرية التي فقدتها فكادت تختنق أنفاسي،وحينما تيقنت من خلو المكان ذهبت إلى مغارة صغيرة كنت قد خبأت فيها سلاحي عن النصارى،فاستخرت بندقيتي وضممتها إلى صدري فليس سواها من يستطيع استرداد شرفي المهضوم".

"في الصبا كنت أترصد "للشاف الخبيث" بعدما كنت على دراية بمثر سكناه وبالطريق التي سيسلكها،وما هي سوى لحظات حتى منحني القدر فرصة الانتقام،فصوبت بندقيتي ووضعت يدي على الزناد،ثم أطلقت صرخة مسموعة وانتظرت حتى التقت عيني الغاضبتين بعينيه المصدومتين حينها أفرغت كل قوتي على الزناد،لتنطلق رصاصة مميتة نحو رأس الخبيث والذي هوى غير مأسوف عليه".

"الآن إن أراد الموت أن يخطفني فلا بأس بذلك،فسأموت وأنا مسترد لكرامتي بيدي هاتين،أما وإن كان للقدر رأي آخر وقد يمنحني حينها فرصة الثأر من النصارى والخونة المغاربة فسأثبت لهم جميعا من أي طينة نشأ عليها زايد أوحماد،سأرعبهم في النهار،وأجمد الدم في عروقهم ليلا حتى يحسب أحدهم ألف حساب وهو يود مغادرة حجرته،ولا شك أن مئات التقرير ستدون في عملية مطاردة طويلة الأمد باتت تعرف"بقضية زايد أوحماد".

"لما نفذت عملية تصفية الشاف الخبيث،صعدت عائدا نحو الجبال،كنت حرا حينها،أجاور الوحوش وأستوحش الإنسان،أتمثل ببيت شعر قديم يقول:

عوى الذئب،فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصوت إنسان فكدت أطـــــــــير

في الليل تؤنسني النجوم،ويدفئني القمر،وأرتاح لصوت البوم التناثر حولي،وحتى فحيح الأفاعي وهي تسلل باحثة عن فرائسها لم تكن لتخيفني،أكثر ما ترهقني العيون الخائنة من بني جلدتي والتي أطلقها على النصارى طيلة مطاردتهم لي،والتي أدركت أنهم لن يتركوني حيا مهما طال

الزمن،لذا كنت أتنقل من قرية لقرية ومن مدشر لآخر،ومن فج إلى جبل،ومن كهف إلى جوار نهر أرتوي منه بعد كل خناق يشتد حول عنقي".

"حاملا بندقتي،ومرتديا جلبابي وعمامتي البيضاء والتي احتفظت بها من ليلة زفافي وكانت آخر ما تبقى من ثياب العرس التي قطعها "الشاف الخبيث" ،جعلتها غطاء لي تذكرني بهدفي وغايتي في قنص المعمرين والمتعاونين على السواء،كانت تزيدني همة وعزما،وقد تكون كفنا لي حينما يدركني الموت المحتم،كثيرا ما استعملت الكلاب المدربة في مطاردتي فأفر منها نحو قمم الجبال ولما يدنو مني كلب مهاجم أتبخر وسط الكهوف فلا يعثر على أثر،وحتى دوي صفارات الاستنفار اعتدت عليها،وما عادت تزعجني".

"و ككل يوم تطلع فيه الشمس على السفوح العليا للأطلس الكبير،وأنا مختبئ في إحدى مغارات الجبل تصلني صفارات الإنذار،فأدرك حينها أن أعدائي يحصدون ثمار عمليتي لليلة البارحة، يحصون قتلاهم، ويعضون على نواجذهم فتصطك أسنانهم حقدا وغيضا،ولما أجهزت على أربعة فرنسيين من المقر المركزي لتنغير،الذي كانوا يسمونه"الكنتينة" جن جنون قادة الاستعمار وأطلقوها حملة شعواء على كل من شكوا أن له صلة بي من قريب أو من بعيد."

-تقول مصادر العدو الفرنسي: تقرير مؤرخ ب **12** يونيو **1936** م،موقع من طرف رئيس دائرة بومالن الضابط"بوميير:

" وقد تحددت عقوبات وجب تنفيذها في حق كل من له صلة بزايد أوحماد الذي قتل يوم **05** مارس **1936** م،بعد مطاردات دامت سنتين تقريبا،العقوبات كالتالي:

-ما بين **25** و**30** سنة مع مصادرة الأملاك: في حق موحى وحميد،حساين أومبار أوهزا،حمو إميح،وكلهم شاركوا في عملية"واوكودن" إلى جانب زايد أوحماد يوم الفاتح من دجنبر **1934**م.

-ما بين **15** و**20** سنة سجنا مع مصادرة الأملاك في حق كل من ناصر أوتهامي،علي أوحماد من آيت شعيب،داني أوعلي قام بتزويد زايد أوحماد بالمؤونة والسلاح،حدو أوقدي الذي استضاف زايد في بيته،ماما هدي من تادفالت أم الأخوة موحى وباسو وعلي،الذين كانت لهم علاقة بقاطع الطريق زايد أوحماد.

ويبدو أن تلك الغرامات الباهضة والتي أثقلت أهالي تنغير ومست بدرجة أولى كل الذين أبدوا مقاومة للمحتل وعدم تعاون مع عملائهم،وهي الغرامات التي أغنت مكتب تنغير بما مجموعه **58000** فرنك،كما تمت مصادرة الأراضي والاستيلاء على المواشي إذ تقول فقرة من تقرير فرنسي:

-"أما بخصوص بيع البهائم المحجوزة منذ **13** أكتوبر **1936**م،فقد نتج عنه مبلغ **15988** فرنك،فتم تخصيص **10420** فرنك منها لشراء أرض غير مزروعة في تنغير،أما المبلغ المتبقي فيتم تخصيصه لشراء نخيل من الجنوب الجزائري لخلق تجربة بستان نخيل".

-تقول الرواية الشعبية:

"لما رأيت العملاء والخونة والتابعين قد غصت بهم المكان،وأضحوا يد النصارى الضاربة،مسلطين على بني جنسهم وإخوانهم في الدين،أدركت أنه لا بد من إقفال هذا الجحر الذي يلدغ منه المجاهدون،فكانت بندقيتي مسلطة على كل واش أثيم،وكل خائن ينتظر مني أن أسقط في شرك عيونه ليبلغ بي عند أسياده مقابل عرض من الدنيا زائل،وقد ألحقت كثيرا من هؤلاء بأسيادهم الفرنسيين الأربعة على غرار كل من :

-المخزني لحسن بن محمد،الذي لقي جزاءه يوم **19** غشت **1934**م.

-المخزني أحمد بن أحمد ومحمد أوحماد تمت تصفيتهما يوم الفاتح من دجنبر **1934**م.

-مبارك أوبعزا شيخ آيت أوريتان،الذي قتل يومه **22** غشت **1935**م".

"وسيكون على متواطئين آخرين أن ينالوا جزاءهم،ذلك حينما بلغوا أسيادهم الفرنسيين بمكان تواجدي بقصر تادفالت حيث سأخوض معركة الشرف الأخيرة. وكان منهم إبن لأخ شيخ قبيلة آيت بوجان،هذا الذي أخبرني وبكل وقاحة ساعة ما رآني أنه سيذهب ليخبر عمه بوجودي هنا بمغارة إحدو قبائل تودغى العليا،فما كان مني إلا أن صوبت نحوه بندقيتي التي كانت لا تخطئ الخونة ولا المعمرين على حد السواء".

"في ليلة الخامس من مارس من العام **1936**م،كنت على موعد مع قدري،لكني أردت لنهايتي أن تكون شامخة كما بدأت:

-أن أموت ويدي على زناد بنقتي –كما قال المجاهد الكبير موحى أوحمو الزياني- أو أقاوم حتى النهاية –كما حدث مع مجاهد الريف محمد الشريف أمزيان-...كان أمزيان الثائر الأول الذي بدأ الجهاد ضن النصارى وكنت آخر الثوار الذي أذاقوا الاستعمار طعم العلقم وقض مضجعهم لما يقارب الثلاث سنوات..

"ها المرة لم تجانب عيون الجواسيس والخونة الخبر اليقين،إذ سارعت أذن واشية إلى مركز قيادة النصارى أن هناك صيدا ثمينا يقبع ها ته الليلة في قصر تادفالت:

-"إنه الثائر زايد أوحماد".

أخيرا آن لهذا الشبح أن ينكشف،فأعلنت في تلك الليلة حالة الطوارئ وتجندت الفرق العسكرية من فرنسيين وفرق للكوم ومخزنيين مغاربة،هؤلاء الذي دفعهم جشعهم لأن يكونوا على رأس المحاصرين للقْصر الذي آوي إليه،فكانت رصاصات بندقيتي لهم بالمرصاد،وحصدت منهم اثنين هما:

-المخزني محمد أوعلي من مخزن تنغير.

-المخزني محمد نايت ريهو من شرطة أوريتان.

"حدث ذلك في عز تبادل لإطلاق النار بيني وبين المحاصرين لي من كل جانب،وقد أفلت مني يدير أوطالب،هذا الذي وصلتني أخبار من رفاقي المخلصين تقول أنه لم يترك خبرا يوصل الفرنسيين إلى مكان اختبائي إلا وسارع إلى دسه لدى أسياده ،ولا شك عندي أنه وأمثاله سينال من المكافآت ما تسيل له لعابه،بعد أن أضحى ومهم كثيرون يلهثون وراء عرض الدنيا،بعدما باعوا أهلهم ودينهم بعرض من الدنيا زائل..تلك الدنيا التي كنت قد تركتها لهم منذ أن حملت السلاح ذات يوم من العام **1908**م،فعلت ذلك لعلها تصدق في الآية الكريمة:"من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه،فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا" **(الأحزاب الآية 23)**

"كانت ها ته الآية ترافقني أينما حللت وارتحلت،أترحم على كل رفيق لي قضى نحبه وهو صادق في وعده،ولعل أعزهم على قلبي كان موحى وعلي وتاشانت،هذا الذي رفض تحت كل التهديدات أن يدل النصارى على مكان وجودي رغم أنه يعلم عن أسراري الكثير،وحتى لما آيس العساكر منه جلبوا ابنه الصغير الذي لم يكمل السنة الواحدة،وقالوا له أنه إذا لم يدلهم زايد أوحماد فسنقوم بذبح فلذة كبدك أمامك،حينها وفي لحظة سهو من الكل انقض أوتاشانت على السكين وانتزعه من الجندي وضرب بها عنقه،مفضلا أن يموت هو قبل أن يرى ابنه يقتل أمام عينيه،وأن يقابل الموت خير له من أن يشي بي،بعدما أضحت في أعين الشرفاء رمزا للفداء المسلح...الآن أرى نفسي بعد ما قضي كثير من رفاقي وكأنني المعني بالآية" ومنهم من ينتظر " فهل تكون ساعة الانتظار قد أوشكت على النفاذ؟

"تحصنت في السور العلوي للقْصر،بينما انهال علي الرصاص من كل حدب وصوب،حينها تمسكت ببندقتي وقررت ألا أستسلم أبدا،وأن أموت كما يموت الأبطال"صريعا في ميدان المعركة الأخيرة" وبعد أن أرديت المخزنيين صريعين،إذ برصاصة غادرة تخترق أسفل كتفي،ولما التفت للجهة التي جاءت منها الرصاصة وجدت أحد أبناء وطني هو من أطلقها،لا لشيء إلا لينال حظوة عند أسياده النصارى،كان هذا الخائن يدعى"موحي وزبدو"

والذي بدا في قمة سعادته وهو يصيبني تلك الإصابة القاتلة..أذكر أن الدم سال مغزارا،وما لبثت أن خارت قوتي،وحجبت غشاوة سوداء النور على عيني،فقفلت نازلا عند زوجتي ولم أذكر شيئا بعدها أبدا..."

-تقول مصادر العدو الفرنسي:

" في الخامس من مارس **1936**م،قتل انتهت "قضية زايد أوحماد" الذي قتل بتادفالت وقتل معه موحى أوحمو وموحى أوحسو والسلاح في أيديهم...وقد خصصت السلطات الفرنسية تعويضا قدره خمسة آلاف فرنك فرنسي،بالنسبة لموحى وزبدو –وكان أول من أطلق النار على زايد أوحماد،أما الثاني فاسمه يدير وطالب وقد أبان عن تفان كبير أثناء التحقيق.."

"أخذت جثث المتعاونين مع الجيش الفرنسي الثلاثة وتركت جثة زايد أوحماد والمقتولين معه مع تحذير الساكنة من مغبة دفنها أو الاقتراب منها..وبعد أيام وأمام مطالب الساكنة تم إيجاد حل بحرق تلك الجثث من طرف السلطات".

-تختم الرواية الشعبية بالقول:

"إن السلطات الفرنسية اعتقلت كل من له صلة بقضية زايد أوحماد،ووزعت سنين طويلة من أحكام السجن على رفاقه،وأعدمت أربعة ممن شكت في تعاونهم مع البطل الفقيد،فعم الرعب وسطا الخوف،وأضحى "قْصر تادفالت" أشبه بكهف مهجور يسكنه الموت ويعمه الهدوء القاتل، بينما كان على العديد من سكان القبائل التي وطئتها رجلا زيد أوحماد أن تستعد لانتقام النصارى المسلطين على البلد،وأن تجمع الغرامات الثقيلة وتقدم لمكتب الضبط،فباع الكثير أغنامهم وأبقارهم،وصودرت الأراضي والممتلكات،بينما نال الخونة والمتعاونين أمثال"زايد أوزبدو" أجزل المكافآت..".

"كان بين زايد أوزبدو الخائن وزايد أوحماد البطل فوارق عرضها البحار،حتى وإن اجتمعا في الاسم الواحد فشتان بين:

-بين من خلده التاريخ كرمز من رموز الكفاح .

-ومن آثر الخيانة وفي وجه شرفاء بني وطنه حمل السلاح.

-بين من حفظته الذاكرة الشعبية وتغنت به النساء في الأعراس والمناسبات،

-ومن فضل بيع دينه ووطنه بعرض من الدنيا زائل،في مغرب كان يعيش أحلك الأوقات.

- بين من كتبت عنه الروايات،وأنتجت حوله الأفلام تتغنى بأدور أو الشرف .

-وبين من تركهم زايد أوحماد بعد أن قضى نحبه،فكانوا له أسوأ خلف.

بين هذا وذاك،كان زايد البطل الهمام،يغادرنا جسدا ليعيش معنا روحا،روح كريمة أبية رفضت الضيم والجور،وفضلت عيش الكهوف والمغارات على حياة الدور،حياة كانت لتخلد زايد أوحماد"فهد الجبال" كأسطورة لا تزال حية بيننا مهما تقدمت السنون وتعاقبت الأجيال...

*الحكاية السابعة:

أحمد الحنصالي :أسد تادلة الثائر

-شهادة ميلاد بزاوية أحنصال:

استدارت الشمس ببطء معلنة عن مغيب يوم ربيعي مرصع بالخضرة هناك على سهول تادلة المجاورة لجبال الأطلس الشاهقة والمتشحة دوما بالبياض،بينما أسرع الرعاة يهشون أغنامهم نحو قراهم البعيدة.

وقد عمل الشريف سعيد الحنصالي شيخ زاوية أحنصال المشرفة على تلال أزيلال بكل أمان في نشر العلم ومكارم الخلق بمقر زاويته ، بل كان ينظم خرجات لباقي القرى البعيدة لفض نزاع نشب بين الأفراد أو إذابة

مفعول ثأر قديم قد يؤدي لنزاع وشيك..وقد ظلت الأحوال على ما هي عليه إلى أن تناهى لمسامع الأهالي :

-أن النصارى قد اقتربوا من أحواز تادلة.

كان خبر نزول النصارى بميناء آنفا ذات الخامس من آب/ أغسطس من العام **1907** م صاعقا حتى سمعت رجاته بعيدا بسهول تادلة النائية ، وبدا للشريف الحنصالي أن الغزاة هاته المرة:

- لم يأتوا للإغارة، إنما للامتلاك..

شعر بذلك من الرسائل التي جاءته من زوايا كانت قريبة من مكان نزولهم كما هو الشأن مع الزاوية الشرقاوية التي تستوطن قبائل أبي الجعد .

أسرع الشيخ سعيد لعقد اجتماع مع أعيان القبيلة وشيوخها ورسمت خلال الاجتماع معالم خطة إغاثة قبائل الشاوية ، فأرسلت على الفور كتائب فرسان نحو آنفا ، وسرعان ما انضمت لقائد الأطلس موحى أوحمو الزياني الذي هب وجنوده لنفس الغرض ، تطير بهم خيولهم السريعة نحو مقر الجيش الفرنسي المسلح كما ونوعا.

بدا واضحا تفاوت العدة والعتاد بين الجيش الغازي الذي اجتاحت قواته المتفوقة لواكتسحوا آنفا وسهول الشاوية بسرعة خاطفة ، رغم استماتة الزيانيين والتادلاويين في الدفاع عن الشاوية رفقة قبائلها ، ورأى أوحمو وسعيد الحنصالي أن مواجهة النصارى على سهول مفتوحة ضرب من الانتحار ، فالعدو يمتلك المدافع الكفيلة بسحق أي فرسان مهما بلغت شجاعتهم،لذا ارتسمت لهم خطة التراجع والتحصن بجبال الأطلس المنيعة.

وهكذا عاد زعيم زاوية أمغار إلى نواحي أزيلال مدركا أن وصول النصارى لسهول تادلة هي مسألة وقت ليس إلا ، غير أنه كان مصمما على التصدي لهم مهما كان الثمن فلم يحجم عن إرسال معاونيه لتقصي أخبار العدو الآخذ في التقدم.

كان قد مضى على سقوط فاس وتوقيع صك الحماية المشئوم العشر سنوات لما رزقت عائلة الشريف الحنصالي بمولود ذكر ، كان ميلاده على الأرجح منتصف ربيع **1922** م..اختير له من الاسم أحمد تيمنا بسيد الخلق ، وبدا أن الجد كان يتمنى لو يحمد ابنه هو كذلك بين رجالات تادلة وأبطالها ، وربما ستأتيه الأيام بما تمنى ولو بعد حين.

-أحمد الراعي الأمين:

كان أحمد من ضمن شبان القرية الذين تستهويهم المغامرة بقطعانهم حتى تحاذي الجبال ، يركب في ذلك مخاطر شتى ، فيشتد معها عوده وتزداد

شجاعته ، يواجه هو وأقرانه حينها ضواري الجبال وذئابها دون خوف ولا وجل ، إنه الحارس الأمين على قطعان جده الشريف سعيد الحنصالي ، هذا الأمغار الشيخ الذي يحظى بزعامة روحية بين أهالي تادلة لإشرافه على الزاوية الضاربة في القدم.

وفي يوم من الأيام اجتمعت العائلة الكبيرة بمقر الزاوية حول شيخهم ،الذي بدا عليه المرض ، فقرب حفيده أحمد وأوصاه أن يستمر في نهجه في الدفاع عن القبيلة حتى طرد هذا الخطر القادم من عرض البحر ، لم يتكلم الفتى بل اكتفى بما كان يحدثه الجد من ظلم الغزو ومضراته بالبلاد.

سرعان ما داهم الفقر أحمد الحنصالي بعدما ضيق المعمر ومعاونوه الخناق على أهل القرى ، فلم يجد بدا بعدما فقد والديه ثم جده الذي كفله إلا أن ينتقل راعيا لأغنام عائلة آيت أورحو قرب بني ملال ، ثماني سنوات قضاها الشاب الراعي وهو يرقب بؤس الرعاة البسطاء وتضرر الفلاحين من جشع المعمرين الذي استولوا على أجود الأراضي محولين إياها لضيعات عصرية يمنع دخولها.

كان وهو يرعى غنمه ينأى بها نحو الجبال لعله يتنفس الحرية المنشودة ، ثم تعصف به الأيام مجددا فيفلس صاحب الغنم ويجد الراعي نفسه بدون رعي ولا مرعى ..ثم يتوجه نحو بونوال حيث استقر عند المسمى موحى والعيد راعيا ، لكن هاته المرة مستبدلا البقر بالأغنام كخماس على الفلاح المذكور.

تحكي الروايات أن أحمد الحنصالي كان يحصل على خمس العجول المولودة ، لكن موحى قدم له في أحد الأعياد بقرة كهدية لعمله المضني ، كانت ذات لون يميل إلى الحمرة قد تسر من يراها ، ولعل ذلك ما سيجر على الحنصالي مصيرا سيقلب حياته رأسا على عقب.

ذلك أن أن المخزني اوسعيد أوخلا كان قد كلفه أحمد بأن يبيع له البقرة التي أهداه الفلاح موحى ، لتخوف الحنصالي بأن يصادرها أحد المعمرين إن رآها .لكن اوسعيد هذا تنكر للحنصالي وهضمه حقه وقال له بصوت متعال :

-سر دعيني.

لم يتمالك الحنصالي نفسه حتى انقض كالصقر على المخزني الذي كان مكلفا بحراسة المركز الفرنسي بالمنطقة ، تعارك الاثنان وسرعان ما طرحه أحمد أرضا ثم استولى على بندقية اوسعيد وصبها في صدر ذلك الذي اعتبره الحنصالي متعاونا مع النصارى .

أدرك الحنصالي أن خبر مقتل المخزني سينتشر كالنار في الهشيم ، وأن القبض عليه سيقوده للموت بأبشع الطرق ، لذا قرر التحرك سريعا نحو الجبال القريبة ، ومن هناك أعلنها ثورة صارخة على المحتل ومعاونيه .

رصاصة أخيرة:

ترصد الحنصالي للمعمرين قرب سد بين الويدان وفي يوم أطبق على سيارة فرنسية يركبها أربعة فرنسيين ، صوب بندقيته نحوهما فأصاب معمر يدعى تسوتينو ووالدته بجروح قاتلة ، أما كون وزوجته فإصابتهما لم تكن بتلك الخطورة التي فرا فيها مختبئين خلف الأشجار الكثيفة التي تحيط بالسد الكبير.كان ذلك في **13** عشر من آيار /مايو **1951.**

استولى الثائر الوحيد على سلاح الفرنسيين وانطلق يقتنص رؤوس المتعاونين الخونة ، ويترصد المعمرين ليذيقهم من نفس الكأس التي أذاقوها لأهل قبيلته زمن دخولهم لتادلة، كان وهو يتجول بين الجبال والتلال ينتقل بمسافات كبيرة وصلت إلى حدود **150** كلمتر ، لا يهمه سوى بث الرعب في النصارى الذي اعتبر من صميم قلبه أن لا حل معهم سوى لغة البارود.كان يقول :

-الاستعمار لا يمكن قتاله إلا بالسلاح.ويجب وقف تعامل بعض المغاربة الجبناء مع فرنسا.

سرعان ما وجد الثائر الشجاع رفيقا له سيتقاسم معه نفس الأماني والأهداف ، كان اسمه ولد سميحة هذا الذي أعجب بقوة شخصية الحنصالي وعزم على البحث عنه وملازمته ، وهكذا التقى الرفيقان حيث كان يحلو لولد سميحة أن ينادي أحمد الحنصالي ب:

-أسد تادلة.

صارا ينفذان عملياتهما باحترافية وسرعة خاطفة ، ثم يتوغلان في أعالي الجبال ويختبئان حين تهدأ الجلبة ، ولم ينسى ولد سميحة أن يرسم الابتسامة على رفيقه حينما كان يقول له :

-أن بقرة الفلاح هي التي أدت بنا لحمل السلاح.

-وأن بقرة الحنصالي رفع رجلت رجال تادلة لنيل المعالي.

-وأن الحنصالي وولد سميحة، فعلوا في النصارى الفضيحة.

كان ولد سميحة ينقل ما سمعه عن تفاخر سري للأهالي وهم يثنون على الأعمال البطولية التي روعت نصارى تادلة ومعاونيهم حتى كتبت الصحف الفرنسية عشرات القصص عن " سفاح تادلة " أو " لص الجبال " بينما

جندت الإقامة العامة خمسة آلاف جندي وطائرة حربية تمسح أجواء الكهوف والمغارات أملا في العثور على الثائر الشبح.

استمرت ثورة أسد تادلة في الانتشار ، طيلة شهرين كاملين ، ولم يمر اليوم أو اليومين إلا وترتعد معها فرائص النصارى حتى أمسوا لا يستطيعون الخروج إلا برفقة كتائب الجنود المسلحين ، ظل هذا الوضع قائما إلى ذلك اليوم الحزين **23** يوليوز من نفس السنة حينما ستقدم يد خائنة أسد تادلة إلى القفص الذي لن يغير من هيأته شيئا.

_ نهاية فارس

ففي ذلك الصيف القائظ شعر الرفيقان بالعطش يهدد حياتهما ، فقادهما حدسهما نحو إحدى الخيام لطلب الماء ، غير أن هؤلاء الذين اختاروهم للجوار سيخونون العهد حالما تيقنوا بأن المكافأة كبيرة ، تلك التي رصدتها فرنسا على لسان البراحين اللذين ظلوا ينادون بأعلى أصواتهم كلما جاء يوم السوق :

-أن من يأتي برأس الحنصالي أو يدلي بخبر عنه سينال مليون فرنك كمكافأة...

هكذا استغل أهل الخيمة استراحة الضيفين فسارعوا إلى شد وثاقهما ، ثم سرعان ما وصلت الأخبار لشيخ القبيلة الذي هلل بالخبر وطار به اللئيم نحو أسياده الفرنسيين .

– لقد قبض على الثائر السفاح.

حينها هللت الصحف الفرنسية وعادت للمعمرين أرواحهم ، وسريعا تم نقل أسد تادلة ورفيقه الشيخ ولد سميحة مكبلين نحو زنزانة ضيقة بأحد سجون القنيطرة ، حيث سيمكث الثائر الحنصالي في العذاب المهين طيلة السنتين من الزمن ، كانت بطيئة ورتيبة ، اكتفى خلالها أحمد بالصمت الطويل تعلوه غصة الخونة وترتسم في نفسه الثائرة أن خروج النصارى رهين بالقضاء على الخيانة أولا فهي الخنجر المسموم في خاصرة كل ثائر .

هذا ما شعر به المناضل الكبير عبد الرحيم بوعبيد في نفسية أسد الجبال المعتقل ، حينما نطقت المحكمة الشكلية بحكم الإعدام رميا بالرصاص ، في يوم **16** فبراير من العام **1953** ، وبتلك السرعة التي جاء بها الحكم نفذت عملية الإعدام في حق الحنصالي والشيخ الستيني ولد سميحة ، تم ذلك في ساحة السجن الرهيب في **26** من نونبر .

كان ذلك الإعدام الأول الذي نفذ في حق المقاومين بتلك الصورة حتى يعم الرعب نشاط المقاومة المسلحة التي بدت سنة **1953** كذلك المشعل الذي ستنطلق منها الشرارة الأولى لنار الثورة.

بدا أسد تادلة وهو يتجه نحو الكم راضيا على نفسه ، كله ثقة بعدالة قضيته ، أدى وصية جده الشريف على أحسن ما تمنى الجد في أشد أحلامه طموحا:"أن يخلفه حفيد من طينة أسود تادلة التي تزأر بأعلى صوتها حينما يخدش كبرياؤها."

-كان وهو يواجه الموت يبتسم حينما يتذكر أن مطعمه طيلة السنتين كان خبزا وزيتا ، تلك الوجبة الفطرية التي فضلها على طعام النصارى الحرام كما كانت تحلو له نفسه القول.

-وحده رفيق سجنه عبد الرحيم بوعبيد ظل يردد كلما تذكر " الثائر الهادئ" كما سماه بالزنزانة الرهيبة :

*رحم الله أحمد كان وهو يودعني يقول:

-إلى اللقاء عند الله أسي عبد الرحيم .

أنظر إليهم يا أحمد المغربي وهم خلفك في الصورة الوحيدة التي التقطت لك :

-إن التعب قد نال من أحدهم حتى استلقى مهموما من فرط ما أرهقهم زئيرك خلف الجبال والوديان والتلال.

-إن نظرات الإعجاب بما قمت به من بطولة لتكاد تنطق بها عيني ذاك الجنرال المنزوي على يسارك وهو يرمقك دون أن يبدي ما في نفسه خوفا على مصير مشابه لمصيرك .إنك تخيفهم حتى وأنت في قيدك موثق.

أما أنت يا أحمد المغربي فشامخ كالجبل ، نحيف بجسمك الذي أكله السجن وما فترت القيود من عزيمة قلب خلق من طينة أسود الأطلس الكاسرة.

*الحكاية الثامنة:

علال بن عبد الله:الغضب الآتي من الشرق

-لمحة من الشرق موطن علال:

لطالما اعتبر الشرق أرضا مجهولة ومجالا ساحرا ملهما على مر التاريخ ، وقد شكل المقاوم الفذ علال بن عبد الله تجسيدا لأرض الشرق بعدما أصبح علال شعلة أنارت طريق البلاد نحو الاستقلال ،وإليكم الشرارةالتي أطلقت رصاصة قاتلة في جسد الاستعمار الغاشم.

قبل حوالي قرن من الزمن سمع سكان المناطق الحدودية للمغرب الشرقي حديثا تناهى لمسامع شيوخ القبائل الرحل مصدره شاطئ سيدي فرج هناك على ساحل البحر بالجارة الجزائر ويقول الخبر الجلل أن:

-"النصارى قد نزلوا بالشاطئ لاحتلال أرض الإسلام."

حينها علم سكان المغرب أن قوة معادية مسلحة بالحديد والنار قد أضحت على مقربة من الحدود ، لذا هبوا لنصرة أمير الجزائر الثائر عبد القادر بن محيي الدين أملا في طرد هذا الشر المستطير.وقد كان الأمير عبد القادر قد اتخذ من غرب الجزائر مقرا لمقاومته العنيفة ، جاعلا مدينة معسكر عاصمة له ، ومتخذا من شرق المغرب مجالا للاحتماء به حينما تشتد عليه الآلة الحربية الفرنسية المتطورة عددا وعدة.

ظل أهل الشرق يقدمون صنوف الدعم للأمير الثائر،وقدم سلطان المغرب حينها "عبد الرحمن بن هشام " دعما لا مشروطا لأهل الجزائر ،وكان من عواقب ذلك أن نشبت معركة غير متكافئة لم تدم سوى سويعات وانتهت بفاجعة مدوية :

-هزيمة الجيش المغربي أمام الفرنسيين في العام **1844** للميلاد.

أدرك أهل الشرق أن الغزو هاته المرة لن يقف عند حدود لالة مغنية التي عينت شريطا فاصلا بين الفرنسيين بالجزائر وأرض المغرب، بل إن هؤلاء النصارى قد عقدوا العزم على اقتحام سيادة الدولة الشريفة بعدما أظهرت لهم معركة إيسلي أن الجيش المغربي لم يعد ذاك الجيش الرهيب الذي ظل راسخا في ذهن الأوربيين منذ انتصار "وادي المخازن " في العام **1578** للميلاد.

وهكذا كشفت الهزيمة لقبائل الشرق المجاورة للجزائر أن الدفاع عن وجودهم بات رهينا باستماتتهم وتكتلهم في أحلاف قبيلية قد توحد الجهود ضد الخطر الفرنسي القريب من الحدود،وأضحت تشن هجماتها السريعة على المراكز الفرنسية التي تتغيى التقدم لاحتلال المغرب.

ظلت تلك القبائل الشجاعة حاجزا للفرنسيين طيلة القرن التاسع عشر للميلاد ، إلى أن اضطربت السلطة المركزية والتي كانت تقدم الدعم للمرابطين خلف الحدود ، وأطل القرن العشرون على شبه اتفاق بين بلدان أوربا الإمبريالية على تسليم المغرب للاستعمار الفرنسي.

وهكذا استغلت فرنسا قصة مقتل الطبيب موشان فدفعت بجيوشها المتواجدة بالجزائر نحو سهول ملوية المفتوحة ،ولم يمض وقت طويل حتى احتلت مدينة وجدة في العام **1907** للميلاد.وذلك رغم مقاومة الحلف الزناتي لهاته الجيوش المتطورة رجالا وسلاحا.ثم وسعت القوات الغازية من دائرة نفوذها فوجهت نيرانها نحو مدينة جرسيف ، تلك المدينة الهادئة التي يخترقها نهر ملوية وتحيط بها مزارع الزيتون من كل صوب واتجاه كأنها "جنة آدم وسط الصحراء " كما وصفها ذات يوم الرحالة الشهير محمد بن الحسن الوزان.

-ميلاد علال زمن الاحتلال:

في ظروف الاحتلال تلك ولد بطلنا علال في مطلع العام **1916** للميلاد، هذا الفتى الذي سيلقن الاستعمار الفرنسي درسا في الوطنية الصادقة حينما أعلنها شرارة ستحرق لا محالة ما تبقى من جسد المستعمر الآيل للسقوط.

كان والد علال واسمه عبد الله الهواري ينتمي لقبيلة أولاد رحو، تلك القبيلة الأبية والتي حاربت الفرنسيين لعقود ، وقتل الكثير من أفرادها في المواجهات الدامية مع الجيش الاستعماري منذ أن وطئت قواته أرض جرسيف وأحوازها الواسعة، ولذلك شب الفتى علال ناقما على هذا العدو الذي جثم على أرض أجداده وسد على الأهالي سبل الحياة الكريمة.

والمعروف أن القبائل الشرقية حملت السلاح في وجه المستعمر حتى استنفذن كل إمكاناتها ، فرضخت مؤقتا لسطوة الحديد والنار التي سلطها المعمر على كل مقاوم ، ففضل الكثير من أفراد قبيلة أولاد رحو إتباع طريق الانتجاع والترحال حتى لا يخضعوا للقوانين الفرنسية التي قيدت من حريتهم وسلبت ممتلكاتهم .

وقد فضل عبد الله والد علال الاستقرار في جرسيف على مضض ، بعد أن علم أن قوانين جديدة استصدرتها السلطات المعمرة تكبل بها طرق الانتجاع حتى تحد من خطورته ، لكنه ما فتئ يذكر أبناءه ومنهم الشاب عبد الله على عدم الرضوخ للنصارى ويذكرهم دائما بأن :

-هؤلاء النصارى سيرحلون عن أرضنا يوما ما.

وما لبث عبد الله أن غادر الحياة وفي حلقه غصة تكالب النصارى على أرض الأجداد ، والأدهى من ذلك هو إعانة القواد والمقدمين المغاربة للمستعمر ضدا في بني جنسهم ، بل راح يقول وهو في سكرات الموت :

-" إن هؤلاء الخونة هم من ثبتوا سلطة النصارى علينا،وهم من يوجهوا لنا الضربة الغادرة في الخاصرة ولولى خيانتهم لكان لنا شأن آخر مع بني الأصفر."

ولسوف تكون وصيته لابنه علال وباقي أهله آخر مانطق به قبل أن يرحل حزينا على وطن مغتصب ، وسرعان ما ستتحقق مخاوف الراحل عبد الله حينما سيهب قائد جرسيف الموالي للفرنسيين على إصدار أمره للاستيلاء على الأرض الكبيرة التي تركها عبد الله ونزعها من ورثته على اعتبار أن الراحل كان مقاوما للفرنسيين وأذنابهم، وتلك كانت الصفعة الأولى التي تلقاها الفتى علال والتي سيكون لها وقع التماس الكهربائي الذي سيوقظ فيه روح الفداء.

بدت تحرشات القواد وجشع المعمرين تزداد تغولا على أهالي البلد المستعمر ، وقد اشتدت سطوتهم على الأراضي الزراعية لإطعام الجوعى الناجين من الحرب العظمى الثانية التي انتهت منتصف الأربعينات ولم يتوقف حرها بعد أن خلفت عدد لا يحصى من المشردين والمعطوبين والمرضى ، وكان الفرنسيون أكثر الشعوب التي نالها شواظا من لهيبها الذي استعر طوال ست سنين كاملة ، لذا رأى الفرنسيون –كغيرهم من الدول الاستعمارية –أن الحل يكمن في :

-استغلال الشعوب الخاضعة لهم بكل الوسائل المتاحة حتى النجاة مما خلفته الحرب من ويلات.

وهكذا أصدرت الأوامر إلى القواد والمقدمين قصد جمع المحاصيل والاستيلاء على الأرض التي يتمنع أصحابها أو يبدو أدنى مقاومة للأوامر الصادرة.وكانت أرض علال التي ورثها عن والده الراحل من ضمن الأراضي التي طالتها يد القائد الظالم والذي أمر المقدم بمنع علال وأسرته من استغلالها بدعوى :

-أنها غير محفظة ولا يملك أصحابها أوراقا ثبوتية.

وكانت تلك حيلة لجأت إليها الإدارة الاستعمارية كخطة جهنمية جمعت بها ملايين الهكتارات من أجود أنواع التربة ونقلتها بتلك الطرق الملتوية للمعمرين ولأتباعهم من أعوان السلطة، وفقدت آلاف الأسر المغربية أراضيها –مصدر رزقها الوحيد-واضطر كثير منهم للهجرة نحو أقرب المدن للخلاص من شبح الفقر والحرمان التي أضحت تزداد قوة وصلابة ، وبعض من الأهالي لم يجدوا بدا من الرحيل نحو مناجم الفحم نحو جرادة التي تحولت إلى مركز استقطاب كبير للبائسين من المغاربة الذين تحولوا فجأة إلى عمال مياومين في ظروف صعبة مجردين من أبسط حقوقهم ، وربما اشتغل كثير منهم لساعات متواصلة تحت التعنيف والضرب المبرح .

فقد علال أرضه وكاد معها يفقد عقله، وتوفيت والدته بعد مدة يسيرة على الحادثة الأليمة ، متأثرة بما حل بأرضها وأهلها، فربما كانت المرأة أكثر ارتباطا بالأرض من شقيقها الرجل ، فكلتاهما تحملان صفة الأنوثة، وكلتاهما تبكيان أبنائهما من شدة الفقد:

-فالأرض تبكي وديانا وأنهارا.

-والأم تذرف الدموع للفراق وفيرا مغزارا..

هكذا بكت أم علال أرضا ضاعت، وبلادا احتلت ، ولا أمل قريب يبدو في الأفق..ظلت تبكي حتى خبت روحها وغادرت الدنيا ، كما غادرها من قبل زوجها دون أمل رؤية أحلامهما الكبيرة :

-أن تتحرر البلاد من هذا الاستعباد.

دفن علال أمه بجوار أبيه،وانطل لشأن يغنيه ، كان قد عزم على الرحيل هو كذلك ، رائحة الموت أضحت تملأ أنفه ، وصوت أنين الأرض تملأ سمعه ، أرض تناديه ليعيدها من أيدي غاصبة لفت حبل الأسر عليها وعلى أهلها ، ولم تأت السنة الأخيرة من أربعينات القرن العشرين حتى انطلق علال مندفعا، مبتعدا عن وضع خنق أنفاسه ، وأشعل فيه روح الانتقام ، انتقام يكاد يظهره على شكل نظرات حادة للمقدم الذي سلبه

أرضه حينما يرمقه في السوق الأسبوعي ، كان يود أن يخترط أحشائه بسكين يحمله معه بين ثيابه ، لكن علال سرعان ما يطرد وساوسه تلك ويقول في قرارات نفسه :

-"إن هذا المقدم ما هو إلا صنيعة لأسياده الفرنسيين ، وأن قتله لن يقطع رأس الأفعى ، وسيأتي النصارى بعميل جديد يسير على سنة سابقه في موالاة المعمر على حساب أبناء الوطن المستعمر".

كان يعلم أن روح الثأر قد تقوده لقتل هذا الطاغية، لكن النهاية ستكون مقتله لا محالة، فلم لا يوجه ضربة قاصمة لأسياد هذا المقدم وغيره من أذناب الاستعمار ومعاونيه؟..فكر في ذلك بعدما عقد مع نفسه عهدا على أن:

-"يهب روحه فداء لوطنه."

-نحو الرباط أسرع علال:

لذا قرر علال أن يغادر صوب مقر إقامة المعمر ومركز حكمه :

-الرباط.

بدت المدينة الساحلية للآتي من الشرق كعاصمة حديثة، ومدينة لا تشبه جرسيف موطنه التي يطغى عليها الطابع الريفي وتمتد أزقتها على أشجار الزيتون والنخيل ، أما الرباط فقد استحدثتها الإقامة العامة في شخص " المارشال هوبير ليوطي" هذا المقيم العام الذي نقل مقر الحكم من فاس –العاصمة التقليدية للمغرب- إلى هذا المركز الصغير على ساحل الأطلنتي ، وذلك بعدما رأى أن مدينة الأدارسة تحيط بها الجبال ولا شك ستظل مركزا للمقاومة التي ستذيق المعمر كل الوبال.

لما استقر علال بالرباط كان قد مضى على وجودها كعاصمة ثلاثة عقود ، تزينها الأعلام الفرنسية المتعددة الألوان ، ويحيط بها الصمت والاستعداد لكل طارئ ، لا سيما وأن مطلع الخمسينات كان قد أطل على شد الحبل بين الإقامة العامة والسلطان محمد بن يوسف ، هذا الحبل الذي بدا أن مسألة قطعه أضحت قضية وقت ليس إلا ، وذلك بعدما شعرت سلطات الحماية أن الحركة الوطنية النشيطة بمدن الرباط وفاس والدار البيضاء قد اخترقت القصر السلطاني ووثقت صلاتها بعاهل البلاد .

شعرت سلطات الإقامة بهذا المستجد في أعقاب وثيقة المطالبة بالاستقلال في الحادي عشر من كانون الثاني /يناير من العام **1944** للميلاد ، ثم ازداد الأمر توترا بينها وبين محمد بن يوسف بعد خطابه المستفز بمدينة طنجة "الدولية" في العام **1947**، لذا فالخمسينات كانت

ستظل لا محالة على صراع وشيك بينهما بعد أن امتنع السلطان على وضع خاتمه في الظهائر التي تصدرها السلطات الاستعمارية بشكل دوري.

أما علال فتى الشرق المستقر حديثا بحي العكاري ذو البيوت الفقيرة المتشابكة والتي سهلت تواصل المغاربة مع بعضهم البعض بعيدا عن آذان المقدمين وعيون البوليس السري ، زكى ذلك سرعة فرار المطلوبين "للعدالة الاستعمارية" عبر تلك البيوت المرتطبة بعضها ببعض عبر فتحات سرية توصل حتى البحر المحيط.

كان يسمع كغيره من شباب الحي بعض الهمسات القادمة من القصر السلطاني القريب، ويخبر الوطنيون بعضهم البعض أثناء اجتماعاتهم السرية أن التوتر أضحى الفيصل بين ابن يوسف والمقيم العام الجديد...وأن السلطان مهدد في حياته ومنصبه نتيجة ممانعته.

وفي العام **1952** للميلاد عاش علال مع رفاقه حوادث القمع العنيف الذي صبته الإدارة الاستعمارية على المتظاهرين في المدن الكبرى على خلفية اغتيال الزعيم النقابي التونسي الشهير "فرحات حشاد " ولما كان مشاركا في تلك المظاهرات السلمية أدرك أن البوليس الفرنسي يستهدف الشباب بدرجة عامة ، وغير المتزوجين بدرجة خاصة لما لهؤلاء من اندفاع شديد نحو المخاطر ، دفعه ذلك لأن يتقدم نحو إحدى بنات حي العكاري حيث طلب يديها من والديها ، ثم بعد ذلك انصرف نحو أعمال التجارة حتى لا تتعقبه أعين الفرنسيين وأذنابهم الكثيرين، وبذلك يحولون دون أن يضرب ضربته القادمة.

سمع تجار حي العكاري همهمة صارت خبرا يقينا،ونبأ سيزلزل المغرب زلزالا عظيما:

-"خلع ابن يوسف عن العرش ونفي خارج الوطن".

سرعان ما انتشر الخبر الفاجع انتشار النار في الهشيم وراجت الأرض بأهالي المغرب سواء بالحواضر أو البوادي النائية،وعلا الحزن الوجوه، وحتى إن لم يستطع الأهالي فعل شيء اللهم الاستنكار وتناقل الخبر الفاجع الذي حول النهار إلى ليل دامس ، ولم يجد كثير من المغاربة بدا من الاستئناس بضوء القمر الخافت حتى تخيل كبار السن منهم أن ابن يوسف أضحت صورته –التي نشرتها الحركة الوطنية بشكل منظم وسريع- أضحت تتخيل لديهم في دائرة القمر نفسه.

وما زاد الأمر سوء وتعنتا لدى الإدارة الاستعمارية أنها ستقدم على حماقة أكثر من الأولى بعد أن نصبت على العرش الشاغر ابن عم السلطان "محمد بن عرفة".

شيخ ستيني كان بعيدا عن دواليب السلطة حتى وإن كان جده هو السلطان محمد بن عبد الرحمن بن هشام،وحتى وإن كان مقربا من رجل فرنسا القوي:

-الباشا التهامي الكلاوي ".

هذا الباشا الجبار الذي أصدر بيانا سريعا،جمع فيه توقيع مائتي وسبعين باشا وقائد موالي للاستعمار، وأرسلها للمقيم العام "كيوم" مرفوقة برسالة كلها تمجيد للأسياد الفرنسيين وفيها دعوة صريحة لخلع ابن يوسف وتعيين ابن عرفة مكانه :

-"إننا معشر القواد في مختلف الجهات المغربية ...نتقدم بكل شرف إلى سعادة المقيم العام للدولة الفرنسية الفخيمة بما يأتي :بما أن السلطان محمد بن يوسف خرج عن جميع رجال المغرب العاملين ،واتبع طريقا مخالفا للقواعد الدينية بانتمائه للأحزاب المتطرفة ...الشيء الذي جعله يسير بالمغرب في طريق الهاوية...فإننا نقدم ...طلب عزل السلطان عن الحكم وتنحيته عن العرش وإسناد هذا الأمر إلى من يستحقه".

ولسرعة ما استجابت الإقامة العامة لهذا البيان الملغوم، وعزلت ابن يوسف في الثالث عشر من آب/أغسطس من العام **1953** للميلاد،ونفته بعد أسبوع إلى جزيرتها في البحر المتوسط "كورسيكا".وفي الواحد والعشرين من نفس الشهر عينت ابن عرفة سلطانا جديدا.

هنا ظهر معدن الرجال،وانقسم العلماء بين مبايع ومعارض ومستنكر،وانبرى الشيخ محمد بن العربي العلوي حاسما في هاته النازلة التي زلزلت القصر السلطاني وعدلت من ساكنيه مصدرا فتوى سيكون لها شأن ولو بعد حين :

-"يجب قتل "السلطان الجديد".

-لا ندري هل سمع علال بن عبد الله تلك الفتوى ؟

-أم أنه سيتخذ قراره من نفسه الثائرة؟

-على موعد مع بطولة نادرة:

-أو أن ضربته الكبرى التي كان يخطط لها منذ مغادرته جرسيف قد آن أوانها؟؟

المهم أن فتى الشرق تحرك سريعا بعد أن علم بعزل ونفي سلطان البلاد الشرعي،اجتمع مع رفاقه التجار الذين كان معظمهم أعضاء في صفوف الحركة الوطنية،وخرج علال بقراره الذي لا رجعة فيه :
-"ضرورة تصفية هذا السلطان ..صنيعة الاستعمار.
حاول أن يحصل على سلاح ناري بمختلف الطرق، لكنه فشل في ذلك، فلم يكن الحصول على السلاح بالأمر السهل في تلك الأيام العصيبة ، وسلطات الحماية ومعاونيها المغاربة على أشد الاستعداد لكل طارئ ،والحركة الوطنية لم تكن قد رخصت حمل السلاح في وجه الاستعمار بعد،كان رموزها لا يزالون يتشبثون إلى حدود نفي ابن يوسف بالحوار والمظاهرت السلمية لعله يكون الحل الأمثل لخروج المعمرين إلى بلادهم دون إراقة الدماء.
لكن هيهات هيهات،فالخطب جلل،والأيام أثبتت خبث المحتل وأصداء كلمات رموز المقاومة لا زالت تثبت صحتها،وتؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن المستعمر لم ولن يغادر إلا إذا لعلع البارود فوق قبعاته الزرقاء.
-ألم يعلنها موحى أوحمو الزياني صرخة غاضبة حينما ردد فوق أعالي خنيفرة الأبية:"لا أرى نصرانيا إلا ويدي فوق زناد بندقيتي.
- ألم يطلق أسد تادلة "أحمد الحنصالي" ثورته المسلحة على معمري فرنسا قبل شهر من مؤامرة النفي حينما قال :"إن الاستعمار لا يمكن إخراجه إلا بالسلاح".
ربما كانت كلمات وجدت في علال آذانا صاغية ،وقلبا شجاعا من حديد ،فاجتمعت لديه ذكريات الماضي الحزين هناك في جرسيف البعيدة،مع خطوب عزل السلطان ونفيه خارج بلاده ،فلم يجد إلا سكينا حادا يبلغ به ثأره وثأر شعب بأكمله،وهاهو ابن الشرق يحدد هدفه ليتحدد معها مصيره
بعد شهر على حادث النفي غادر علال بن عبد الله بيته المتواضع وهو يدرك أنه لن يعود ، ودع زوجته الحامل ولم يخبرها عن وجهته ولا عن نيته التي بيتها في ليلته الأخيرة:
-"اغتيال هذا السلطان المزعوم".
لم يخبر فتى الشرق أحدا،يعتقد أن في سريته قد يتحقق أمران :
-ألا يشيع أمر الاغتيال حتى لا تفشل ضربته الكبرى.
-وألا يثنيه أحد عن هذا الأمر لو أخبر به أحد ما.
وكمن يتزين للقاء ربه في أعظم أيام الله "يوم الجمعة" لبس علال أجمل ثيابه التي تعبر عن أصالته:

-الجلباب الأبيض المغربي.
-والطربوش الأحمر القاني.
حتى الألوان كانت معبرة لدى علال،هي بالنسبة له تحمل مغزى ما:
-فالأبيض كان كفنه الذي يحمله معه.
-والأحمر كان لون الدم فداء لوطنه.

كان وهو يسير رويدا رويدا على سيارته الرمادية اللون من نوع فورد، يدنو من "مسجد أهل فاس" بعد أن علم أن "السلطان المزعوم" سيؤدي فيه صلاة الجمعة،لذا ترصد موكبه بعناية،كان يردد آيات كريمة علها تثبت قلبه في هكذا موقف ،يلتفت يمنة ويسرة لعله يترصد عينا تترصده ، ولما يطمئن فؤاده ،يدخل يده قرب صدره يتحسس بها تلك السكين التي ربطها بإحكام حتى تؤدي جسيم المهام.

على بعد خطوات من موكب ابن عرفة انقض أسد الشرق على صنيعة الاستعمار،وثب إلى العربة السلطانية في سرعة البرق وقفز كالنمور الهائجة ،استل سكينه الحاد،وفي لحظة ما تهاوى السلطان العجوز أرضا،ربما صدمته قوة علال،فتبعه ابن عبد الله وطعنه ثلاث طعنات ،لكن الأقدار لم تكتب لابن عرفة النهاية،بل جرح جروحا بليغة نجا بعدها ليكمل حكمه الصوري في خوف دائم من مصير قد يعتريه في كل لحظة وحين.

أما النهاية فقد كتبت للفتى علال، كان ذلك حينما ارتمى البوليس الفرنسي السري على ابن عبد الله فأسقطوه أرضا ثم ما لبث أن أفرغوا في جسده الممدد ثماني رصاصات حية اخترقت صدره ورأسه،وكان الضابط الفرنسي "كويزا لاسورطي" هو من أجهز على ما تبقى من رمق في روح علال الذي سقط شهيدا للواجب والوطن مدرجا وسط بركة من الدماء.

لاحقا سيلقى جلاد علال نفس المصير،ولن يعيش طويلا ضابط البوليس السري منعما في أرض أجداد علال،كان ذاك حينما تقفى أثره مقاوم فذ لا يقل شجاعة عن ابن جرسيف الراحل،شيخ العرب "سعيد بونعيلات" هذا الذي سيطارد القاتل حتى يخمد أنفاسه الاستعمارية في غفلة من الأمن الفرنسي الذي توالت عليه الضربات من كل جانب بعد مؤامرة النفي.

أمام هول مشهد الاغتيال الشبيه إلى حد كبير بمقتل ولي عهد النمسا "فرانسوا فردناند" ذاك الحادث الشهير المؤدي إلى قيام الحرب العظمى،الفرق الوحيد أن علال ما استطاع أن يحوز سلاحا ناريا كما

حصل عليه جوزيف برينسيب القومي الصربي وإلا كان "السلطان المزعوم" قد لفظ أنفاسه وسط ساحة المشور.كما أن كلا الحادثين قد أعطى الانطلاقة السريعة لشرارة أحداث قلبت الموازين.

تلك الساحة التي ظلت فيها جثة الشهيد علال مرمية لم يقربها أحد،ولم تدري الإقامة العامة ما تفعل بها، بل تعالت الأصوات متنازعة أمرها بين قادة الشرطة والجيش الاستعماري :

-هل يدفن هذا الثائر في مقبرة مدنية أم عسكرية؟

-أم تقذف جثة هذا الفدائي الشبح في قبر منسي،هذاالذي لم يعرفوا من أين خرج عليهم ليرعبهم بعدما توهموا أنهم غدوا آمنين؟

وحده قائد هضبة زعير،كبير المتعاونين مع الاستعمار "القائد امحمد الزعري" كان قد وجد خطة شيطانية أخرجتها نفسه الخبيثة من عقله الذي لا يفكر إلا في كيفية التذلل لأسياده الفرنسيين،فصاح القائد قائلا:

-أقترح يا سادة أن يدفن في قبر مجهول وسط ضيعتي بزعير،لا يعرف حتى الجني الأزرق مكانه.

وهكذا حمل علال البطل في سيارة القائد المتجبر ونقل بعيدا وسط منطقة زعير الشاسعة المساحة،لينتهي به المطاف قرب مدينة الرماني حيث أمر القائد امحمد رجاله بأن يستعجلوا في حفر حفرة عميقة في أحد حقول الذرة التي حازها القائد من أهلها ظلما وعدوانا.

سرعان ما طرحت جثة الشهيد علال،لم يغسل كما يفعل بجثث المسلمين ، ولم يكفن كما هي العادة،بل كان كفنه هو جلبابه الأبيض الذي ارتداه ساعة خروجه الأخير، كما كان طربوشه الأحمر هو رمز وطنيته الصادقة، لقد اختار علال كفنه من قبل،ربما كان حدسه قد أخبره أنه سينتهي به المطاف بين يدي الفرنسيين الذي كانوا على الأقل سيدفنونه في مقبرة ما، لا يهم إن كانت عسكرية أو مدنية..لكن أن ينتهي به المطاف عند قائد لا يحمل من الإسلام إلا الإسم.فيعامل جثمانه بتلك الوقاحة السادية فهذا الذي لم يكن يتصوره علال ولا غير علال.

-أحقا كان هؤلاء القواد أكثر جشعا من أسيادهم المعمرين؟؟

-لقد تشابه امحمد هذا مع الباشا الكلاوي والمتوكي والعيادي وعيسى بن عمر وبوحافة في جبروتهم على أبناء جلدتهم بالشكل الذي هانت عندهم كرامة المغاربة أبناء وطنهم.

-الاستقلال،وإعادة دفن رفاة الشهيد علال:

وحدها الأيام ستكشف قبر علال، ومعها ستكشف خسة ولؤم القائد الزعري الخبيث،كان ذاك حينما هيأ القدر لعلال البطل رجلا صادق الوطنية كريم النفس، شيخ في التسعين كان شاهدا على حادث الدفن المأساوي،واعترف بقصة الدفن بعد أن لاحت رياح الاستقلال وعاد السلطان الشرعي من المنفى البعيد بجزيرة مدغشقر في العام **1955** للميلاد.

فقد كشف الشيخ الموقر عن علاقة القائد الخسيس بجثمان علال،وعلم هذا الأخير بأمر السلطان الذي كانت من أولى أوامره :

-"أن يكشف قبر الفدائي علال بن عبد الله".

فلم يجد سبيلا بعد أن كشف أمره إلا أن يأتي القصر ذليلا حقيرا معترفا بما اقترفت يداه ومستجدا العفو وإن كان لا يستحق كغيره من القواد الكبار،ثم اعترف بمكان دفن الشهيد علال وطريقة الدفن دون مراسيم تذكر،فأودي امحمد السجن وإن كان يستحق قطع الرقبة على ما فعل.

حمل جثمان علال إلى ساحة المشور في المكان الذي نفذ فيه عمليته البطولية،وأقيمت له مراسيم دفن رسمية تليق بما قدمه من تضحيات ، أقيمت عليه الصلاة،غسل وكفنت عظامه أو ما تبقى منها بعد سنتين قضاها جثمانه في طي المجهول.

الفرقاطة علال بن عبد الله من فئة"سيغما" تسلمتها البحرية الملكية في **2012**م.

رصعت كلمات السلطان محمد بن يوسف ذكرى علال بكلمات من ذهب رثى بها الملك العائد هذا الفدائي العظيم قائلا :

-"لقد أبينا إلا نظهر اليوم عنايتنا بإزاحة الستار عن اللوحة التذكارية المقامة في المكان الذي سقط فيه علال بن عبد الله،ذلك البطل الصنديد الذي برهن على أن العرش منبعث من صميم الشعب المغربي...حتى سقط في ميدان الشرف صريعا،مخلفا للأجيال أعظم الأمثلة على التضحية والغيرة وحسن الوفاء".

كانت يحق مراسيم مهيبة استحضر فيها المغاربة ملكا وشعبا شهداءهم الكثر،ومعاناتهم المريرة مع القواد الذي كانوا فرنسيين أكثر من فرنسا،كانوا كسرطان جثم على نفوسهم حد التكبيل،لقد كان علال شمعة حرقت نفسها لتنير دربا مظلما أدى في نهاية المطاف إلى حلم الاستقلال.

بدا الموكب الجنائزي بطيئ الخطى،تتقدمه الفرقة العسكرية في مشهد علاه الوقار،متجهين نحو "مقبرة الشهداء بالعاصمة الرباط،حيث ووري علال الثرى كخير ما يوارى الأبطال.

بعدها بعام سيقام نصب تذكاري لعلال الشهيد في المكان الذي سقط فيه قتيلا،كان ذاك تذكار يحمل معاني شتى:

-هي رسالة مشفرة إلى جلادي علال " كويزا" و"امحمد" مفادها أن دوام الحال من المحال،وأن ذكرى الشهيد تظل حية راسخة،يعلوا بها شأنه ولو بعد حين.

- وفي النصب أيضا رسالة أخرى تخبر "صنيعة الاستعمار" السلطان المزعون ابن عرفة الذي عاش بقية عمره الطويل شاردا في طنجة ثم لاجئا في نيس الفرنسية تخبره أن "العمر الطويل لا يخلد مجد الإنسان ما لم يترك أثرا يذكر به".

كان الركب المودع لجثمان الشهيد ينصت للموسيقى العسكرية التي أدت التحية الأخيرة لعلال،وهم يسترجعون قصة "علال وابن عرفة "وكيف انقلبت فيها الأحداث رأسا على عقب، ربما كان طيف علال يهمس لهم من أسفل الحجارة وهو يرتجز:

-أنظر إليك يا ابن عرفة،لقد عمرت طويلا طريدا شريدا،ولما عدت للوطن بعد حين دفنت جثتك بقبر مجهول لا يحمل أي لقب ولا إشارة في سرية تامة؟

-أليس ذلك من عجيب الأقدار،وانقلاب الأدوار ؟

*الحكاية التاسعة:

الزرقطوني أيقونة الفداء بالبيضاء

"منذ السابع من غشت **1907** لم تعد الدار البيضاء مسكونة إلا بالموتى" بهاته العبارة وصف القبطان الفرنسي "غراسيي" في كتابه"اختراق الشاوية" إحتلال الدار البيضاء ،حيث كان مشاركا في إنزال القوات الاستعمارية الفرنسية بميناء آنفا بعد القصف العنيف للبوارج الحربية للمدينة وأهلها المسالمين طيلة خمسة أيام بلياليها دون انقطاع ناشرة بذلك الخراب والموت في كل مكان.

كان هذا المشهد الأول الذي ستعيش الدار البيضاء فصولا دامية منه طيلة الوجود الاستعماري الفرنسي بالمدينة والذي أعاد مشهد التدمير فيه إلى أذهان البيضاويين ذكريات مماثلة تعود لمنتصف القرن الخامس عشر وبالضبط في العام **1468**،حينما قصف البرتغاليون مدينة"آنفا" ولم يسلم من قصفهم إلا دور قليلة كان أهمها "كازابرانكا" أي الدار البيضاء بتعبيرهم ،والتي سماها البرتغاليون بهذا الاسم لما عادوا للمنطقة في العام **1515** واستغربوا لنجاة هاته البناية من التخريب،وهكذا سيغلب هذا اللقب على آنفا نفسها والتي ظلت على حالها إلى عهد السلطان سيدي محمد بن عبدالله حينما أعاد لها الحياة واهتم بمينائها وتجارتها خلال القرن الثامن عشر.

وقد كتب الصحفي الفرنسي المرافق للجنرال"داماد" الذي أمر بقنبلة المدينة أن"التدخل الفرنسي في المدينة كان سببه صيحة صفارة"وذلك في

إشارة إلى السكة الحديدية التي شرع في استعمالها الفرنسيون منذ آذار/مايو من نفس السنة الحزينة.بل وذهب ساخرا حينما قال أيضا"إن هذا الشبح الحديدي يمكن أن يمتد إلى بلادهم ويزرع في دواويرهم دخانه الشرير."

كان الشبح الحقيقي هي البارجة الحربية"غاليلي" تلك التي أرسلت وابلا من القنابل انهارت معها الأسوار وتطايرت الخيول في السماء في درب السلطان كما أخبرنا بذلك الصحفيون المرافقون للحملة العسكرية.وذلك ردا بزعمها على مقتل العمال التسعة في المرسى البيضاوي.إنه الانتقام السريع الذي أراده الفرنسيون ليكون على هذا الشكل المأساوي حتى أن الملاحظ الإنجليزي هويل وصف في كتابه"مغامراتي " ذلك المشهد الحزين:

-" من ثلاثين ألفا من السكان ،لم يتبقى إلا حوالي مائتين أحياء،ألاف ..من يهود ومغاربة مزقوا إربا بواسطة قنابل الملينيت ".

وهكذا سقطت البيضاء في يد الفرنسيين لتنطلق بعدها مقاومة قبائل الشاوية التي هبت لنجدة المدينة طيلة ستة أشهر قادمة من المواجهة مع الجنرال" درود" والقوات الاستعمارية المرابطة،تلك المقاومة التي لم تخمد نيرانها إلا بعد أن استنفذت كل أساليبها القتالية نتيجة سياسة الأرض المحروقة التي نهجها جنرالات الحرب الفرنسيون.. وقد أعقب الزحف الفرنسي تخطيطا مسبقا من طرف المقيم العام الفرنسي"المارشال ليوطي" لما عين في منصبه بعد توقيع عقد الحماية فسارع إلى جعل البيضاء:

-"مدينة الحداثة الأوربية".

هذا الاختيار الذي وضع المدينة تحت المراقبة الفرنسية الشديدة أحبط كل مقاومة وجعل منها أهم مستقطب للجالية الأوربية التي جذبها الاستثمار، وقوة رأس المال، حيث تشكلت طبقة ارستقراطية تتخذ نمط عيش مترف شبيه بمدن أمريكا..أما هوامش المدينة فأضحت مجالا لعيش الفلاحين المغاربة المطرودين من أرضهم،وسكنا للعمال الذي دفعتهم قساوة الحياة لاتخاذ البراريك سكنا لهم.

في ها الظروف ولد جيل من البيضاويين وهو يسمع حكايات الرعب للعام **1907**،تلك الحكايات التي ستتحول تدريجيا إلى تبلور وعي وطني ملؤه الشجاعة والإقدام،ولعل أهمهم كان:

-"محمد الزرقطوني".

فتى جميل المحيا،متقد الذكاء،ولد لأسرة عالمة فأبوه كان مقدما للزاوية الحمدوشية، وأمه كانت من أصول فاسية شربت النخوة والعلم كابرا عن كابر،وقد رأى محمد النور في العام **1927**،حيث تابع دراسته في المسيد ثم المدرسة العبدلاوية التي أسستها الحركة الوطنية وساهمت بقدر كبير في تبلور الوعي القومي لدى شباب المدينة المناضلة.

نشأ الشاب الزرقطوني في جو اتسم بمظاهر التهميش التي يعيشها مغاربة الدارالبيضاء مقابل حياة البذخ التي يسلكها الأوربيون،فدفعه هذا الأمر إلى التخلي عن المدرسة وامتهن التجارة وهو في سن السادسة عشر،غير أنه أتم دراسته بعصامية كبيرة،بل وتعلم الفرنسية"لغة العدو" حتى يتسنى له معرفة ما يجول من أحداث تهم ما يود أن يقدم عليه من أحداث جسام.

ولعل أولى بوادر تحركات الفتى الشجاع هي انخراطه المبكر في خلايا حزب الاستقلال وتكليفه بتوزيع المنشورات التي تظهر عدالة القضية الوطنية مستغلا رياحا جادت بها ظروف حدث مؤثر ألا وهو "اندلاع الحرب العالمية الثانية في العام **1939**".تلك الحرب التي هزمت في بدايتها فرنسا الاستعمارية شر هزيمة من طرف ألمانيا النازية، بل وفقدت فيها فرنسا استقلالها وشرفها.

وهكذا أدرك الزرقطوني ورفاقه أن فرنسا لن تتخلى عن استعمار المغرب بالطرق السلمية،وذلك رغم التضحيات الجسام التي بذلها المغاربة في سبيل تخليصها من ويل النازية حتى تحقيقها النصر الأكبر،بل إنها سارعت إلى التضييق عن الملك محمد بن يوسف وبالخصوص لما أعلن عن زيارته إلى مدينة طنجة في التاسع من أبريل من العام **1947**،تلك الزيارة التي حملت معاني غاية في الخطورة كما استشعرتها الإقامة العامة

وبالخصوص أنها برمجت عبر القطار،وكأن السلطان يود من خلالها أن يقول:

-"أن طنجة المنطقة الدولية وقبلها المنطقة الخليفية كلها أرض واحدة حكمها ومنذ القدم أجدادي.لذا فلست أعترف لكم بتقسيم بلادي"

فما كان من السلطات الاستعمارية إلا أن دبرت" ضربة ساليغان" قبل يومين من سفر السلطان،وهي الضربة الموجعة الثانية التي تلقتها الدارالبيضاء بعد ضربة **1907**،بل إن هاته الأخيرة كانت بالوحشية التي جعلت من جنود اللفيف الأجنبي الأفريقي يفرغون رصاصهم الحي على كل شيء حي يتحرك أمامهم،وهكذا سقط الآلاف من البيضاويين في جريمة مروعة حركت الرأي العام الوطني بين خائف ومستنكر. أما الزرقطوني ورفاقه الشباب المثقف الواعي فقد أدركوا مما لا يترك لهم بابا للشك أن:

–"العمل المسلح أضحى الخيار الوحيد لتحرير البلاد".

وهو في سن السابعة والعشرين حمل الزرقطوني في مخيلته فكرة"حرية المغرب واستقلاله" تلك الفكرة التي يقول عنها أحد رفاقه وأحد المؤسسين الأوائل لعمليات الفداء"الحسين برادة":

-"لقد ملأت عليه تفكيره وحياته،وطوقت عنقه في كل حركاته وسكناته..وكان على قناعة تامة أن القضاء على المستعمر يستوجب القضاء على المتعاونين معه من المغاربة، إيمانا منه بوجوب تطهير البلاد من الخونة".

لم يكتفي الفتى الزرقطوني بالأفكار،بل عمل على نقلها إلى أرض الميدان،جاعلا من البيضاء أرض للفداء،بل إنه كان المنسق والعقل المدبر لكل العمليات الفدائية التي ستشهدها المدينة مطلع الخمسينيات لما اختار المقيم العام "كيوم" القيام بمؤامرة **20** غشت ونفي السلطان الشرعي إلى مجاهل إفريقيا.

وقد دبرت السلطات الاستعمارية مكيدتها تلك بعدما اختارت مناسبة دينية ذات قدسية بالغة لدى المغاربة،وهكذا عزلت ابن يوسف في يوم عيد

الأضحى مخلفة بذلك جوا من الحزن والأسى في صفوف أبناء الوطن المحتل،تلك المشاعر التي تحولت إلى سخط عارم وغضب ساطع لدى الزرقطوني وأقرانه من الشباب.

وانطلقت أولى الشرارات الفدائية لما قام البطل علال بن عبدالله بعد ثلاث أسابيع على المؤامرة الدنيئة بمحاولة اغتيال صنيعة الاستعمار"السلطان ابن عرفة" في مشهد بطولي نادر لكنه ستكرر إلى حين إعلان عودة الملك وأسرته من منفاهم بمدغشقر.أما محمد الزرقطوني ورفاقه أعضاء خلايا المقاومة فقد اجتمعوا بينهم بعد استشهاد علال وأقسموا على الثأر لكن بطرق ستكون موجعة للفرنسيين.

في تلك الأجواء المشحونة اجتمع رفاق الفداء:

-محمد الزرقطوني.

-محمد منصور.

-سعيد بونعيلات.

-حسن صفي الدين"الأعرج"

وقد كان هؤلاء هم أعضاء القيادة ومنسقو عمليات نوعية ستخلق ذعرا وهلعا في نفوس المعمرين والخونة المتعاونين،ولعل الحديث عن بعض من العمليات التي نفذتها الخلية البيضاوية ستظهر بالملموس مدى الشجاعة ونكران الذات التي اتصف بها الزرقطوني ورفاقه المناضلين:

- عملية قطار الدارالبيضاء-الجزائر: وهي الضربة القاصمة التي نفذت بنجاح باهر بفضل متفجرات أعضاء الخلية الفدائية التي صنعت بوسائلهم الخاصة،حدث ذلك في السابع من تشرين الثاني/ نونبر من العام **1953**،ونفذها كل من الفدائي محمد منصور ومحمد السكوري بوضع قنبلتين على القطار المتوجه نحو الجزائر حيث انفجر بعد خروجه مباشرة بعد خروجه من محطة الرباط.

وقد هزت هاته العملية النوعية- والتي كانت ردا مباشرا على حادث نفي السلطان ابن يوسف- الوجود الفرنسي بالمغرب وهددت استقراره بعدما خلفت اثنا عشر قتيلا وعشرات الجرحى من الفرنسيين وتدمير تام لعربات القطار.

- تفجير مارشي سنطرال:وهي العملية الأخيرة التي هندسها القائد محمد الزرقطوني والأشد إيلاما للمعمر والأكثر رمزية للحركة الوطنية،وذلك بعدما تقرر الرد على خلع محمد الخامس يوم عيد المسلمين بأن يتكبد الفرنسيون فاجعة مشابهة أيام احتفالات عيد الميلاد لدى المسيحيين.

"ضربة بضربة والبادئ أظلم" كان هذا شعر رفيقنا الزرقطوني وأصدقاءه المجاهدين حينما قرروا ذات ليلة اصبغت بروح الانتقام،بأن توضع ثلاثة قنابل بكل من البريد المركزي والطرود البريدية والسوق المركزي،هذا الأخير الذي سيعيش يوم الرابع عشر من شهركانون الأول/ديسمبر من العام **1953** تفجيرا مروعا زلزل الفرنسيين وحول عيدهم إلى بكاء ونحيب على موتاهم..الذين أودت بهم قنبلة مارشي سونطرال.

جن جنون الإدارة الاستعمارية،وكثفت بحثها وتحرياتها حتى تمكنت من القاء القبض على خمسة من أعضاء خلية "اليد السوداء" والتي كان محمد الزرقطوني المشرف عليها،وهكذا توصلت المخابرات الفرنسية أن هذا الفتى المراوغ والشديد الذكاء والحذر هو المسئول عن كل ما يقع،وأن الايقاع به بات مطلبا لاغنى عنه.

في فاس تقرر مصير محمد الزرقطوني بعدما ألقي القبض هناك على أحد أصدقاءه وهو"البشير شجاع الدين" فتقرر اعتقاله وتم خلالها أيضا تشديد الخناق على الزرقطوني بعدما ذكر اسمه في إحدى جلسات الاستنطاق والتعذيب،هذا الذي كان يغير مسكنه باستمرار،بل وكان يغير حتى اسمه باستمرار،أما لقبه لدى أعضاء الحركة الوطنية فكان "عمر" وذلك تمويها للمخبرين الذين انتشروا كالطفيلات في كل أرجاء البيضاء والمغرب المستعمر.

-النهاية: اقبال على الموت بشجاعة نادرة.

كثيرا ما كان الزرقطوني يردد أمام رفاق السلاح :"أعدكم أنه في حالة إلقاء القبض علي فسيلقون القبض على جثة هامدة" .

مجموعة مدارس محمد الزرقطوني

في المغرب لا تكاد تخلو مدينة إلا وفيها شارع أو مؤسسة تعليمية باسم الزرقطوني

وكذاك كان..فبعد أن تورط سعيد في عملية خيانة وشت بالزرقطوني ،فقد كان سعيد هذا صهرا للمقاوم البشير،وراغبا في خروج زوج ابنته من المعتقل،لذا سارع إلى إخبار أعضاء البوليس السري الفرنسي بمكان تواجد الزرقطوني،هذا الذي جعل المخابرات تسبق البطل الفدائي إلى منزله وتترصده إلى حين المداهمة وإلقاء القبض على هذا العقل المدبر الذي روع سلطات الحماية وقض مضجعها.

في الثامن عشر منتشرين الثاني/ نونبر من العام **1954** سمع محمد الزرقطوني طرقا عنيفا في الباب،فأدرك أنها النهاية،وقد كان يتوقع القبض عليه منذ عملية السوق المركزي لذا كان مستعدا لأية مفاجأة وهو يعلم يقينا أن القبض عليه حيا قد يجعله يعترف مكرها بأسماء خليته الفدائية،هذا طبعا تحت التعذيب الشديد الذي كانت المخابرات الفرنسية تكيله لكل مشتبه به في أيام الخمسينات الحالكة.

وقد كان البطل الزرقطوني على دراية تامة بهذا الأمر،هذا الذي جعله متسلحا دائما بحبة من سم السيانيد القاتل حتى يأخذ منه العدو –حالما يتمكن منه- جسدا لا روح فيه..ومعه تطمر أسرار في غاية الأهمية لو عثرت عليها مخابرات العدو أو وجدت هذا الأسد الهصور حيا يرزق.

يروي المقاوم حسين برادة ذكرى استشهاد الزرقطوني قائلا:"...وبمجرد ما طرقت الشرطة باب المنزل،هرعت زوجته السيدة أمينة إلى كوة الباب،لترى فرقة من رجال الشرطة.فما كان من الأخ الزرقطوني إلا أن أخذ قرص السم- المغلفة بالقطن والتي كنا نحملها جميعا للأسباب المعروفة- وابتلعه ليواجه مصيره رافعا يديه استجابة لأوامر الشرطة التي صوبت فوهات مسدساتها نحوه واقتادته مكبلا إلى مركز الشرطة بالمعاريف،وفي ظنها أنها غنمت غنيمة لا تقدر بثمن،وإنها بذلك ستقضي بالمرة على جميع أفراد الحركة الفدائية..."

يكمل الحاج الحسين بتأثر بالغ ومترحما على رفيق السلاح :"..بينما كان الأخ محمد الزرقطوني مطمئن البال ثابت الخطوات لأنه الوحيد الذي كان يعلم ما فعل،وكان يردد لرجال الشرطة أنه بمجرد ما يصل إلى المركز حتى ينتهي كل شيء،إلى أن سقط رحمه الله جثة هامدة.حاولوا تداركه وهم لا يفهمون شيئا مما حصل أمامهم.. لقد قضي الأمر والتحقت روحه الطاهرة ببارئها راضية مرضية،مات جسده لكن روحه بقيت ترفرف حية تعيش معنا،نستلهم منها أسباب الصمود في درب الكفاح."

*أية شجاعة كنت تقابل بها الموت يا محمد؟

*وأية أسرار احتفظت بها لنفسك ونجيت بها رفاقك من اعتقال وشيك؟

سيكمل رفاق الزرقطوني الكفاح المسلح،مستحضرين في كل لحظة وحين ذكرى رفيقهم ومستلهمين من خططه سبل النجاح،ذلك النجاح الذي بدا في تنفيذ عمليات نوعية توجع أعداءه وأعداء الوطن،ولعل الضربة القادمة ستهدى لروح الفقيد،وتحمل تذكارا لعظمة محمد الشهيد..كانت تلك عملية خطط لها الزرقطوني بنفسه ولم يتسنى له تنفيذها ألا وهي:

-تصفية الدكتور إيرو: وقد كان هذا البوق الرئيسي للإقامة العامة،وأحد أخطر عناصر التواجد الاستعماري،حيث يسلط قلمه المحرض باعتباره رئيسا لتحرير الصحيفة الاستعمارية "لافيجي ماروكان" ولطالما نفث سمومه مخبرا عن خلايا المقاومة ومحرضا على تصفية أعضاءها بشتى الطرق الممكنة،لذا أوكلت القيادة للرفاق إدريس الحريزي

و ابراهيم فردوس عملية التخلص من إيرو هذا.

وأثناء توجه إيرو إلى مكتبه تعقبه الفدائي إدريس فأفرغ في جمجمته سبعة رصاصات من مسدس أوتوماتيكي أردته قتيلا على الفور، وإن كان الحريزي سيفقد هو كذلك حياته بعدما ألقي عليه القبض من طرف البوليس الفرنسي ونفذ في حقه الإعدام بعد عرضه أمام المحكمة العسكرية ،أما رفيقه ابراهيم فقد لاذ بالفرار متسللا بسرعة من مسرح العملية التي هزت الإدارة الاستعمارية وأرعبت أبواقها.

ولنترك ل"كبور" الجندي المغربي المرافق لفرقة القبض على الفدائي محمد الزرقطوني الفرصة لكي يدلي بشهادته،ومعها سنضطلع على معاينته لعملية الاعتقال،وما رفقها من سجال،بل وما نطق به الشهيد من أقوال..

يخبرنا كبور أن الزرقطوني أضحى المطلوب رقم واحد لسلطات الحماية،وأن البحث عنه ظل جاريا منذ تفجير مارشي - سونترال العنيف،وأنه حالما تمت مداهمة منزله حتى هب دون مقاومة وهو يدرك في قرارات نفسه أن اعتقاله لن يكون هينا،فنفذ فعلته دون أن تدري به الفرقة شيئا.

يكمل كبور حديثه بمرارة،كبور ذاك الشرطي المغربي الذي شهد لحظة اعتقال كبير الشهداء، وما شهد حلاوة المقاومة والفداء،بعدما رمته نفسه المتقاعسة في أحضان أسياده الفرنسيين،ولما غادر هؤلاء غير مأسوف عليهم،ظل كبور يتجرع مرارة ما اقترفته يداه،بدا ذلك في نبرة كلامه وهو يستحضر آخر أقوال الشهيد محمد الزرقطوني للبوليس السري الفرنسي:

-"مثلما أخرجتم النازية وهتلر من فرنسا،سنخرجكم من أرض المغرب،ومحمد بن يوسف سيعود إلى أرض الوطن،والمغاربة طال الزمن أو قصر سينالون استقلالهم."

إنه التاريخ الذي ظل يحكي لنا القصص المريرة عن المقاومين المغاربة الذي عانوا الأمرين من الخونة والمتعاونين مع الاستعمار على حساب أبناء الوطن،هذا ما حصل مع أسد تادلة"أحمد الحنصالي" ومناضلنا الشهيد الزرقطوني فكلاهما راحا ضحية للخيانة، بعدما وشت بهما الأعين عند جلاديهم الفرنسيين..

وحدهم رفاق السلاح من ترك فيهم رحيل الزرقطوني غصة حية، وشكل فقده مرارة لدى كل الفدائيين المغاربة،ولعلنا نستحضر بعضا من شهاداتهم في حق رفيق الكفاح،ومن كان العمل بجانبه مبعثا للفخر والحماس،كان جيلا لا يكرر الزمن مثله.

-سعيد بونعلات:

"إن الشهيد الزرقطوني كان رجلا شجاعا بكل ما تحمله الكلمة من معنى،وكنت شاهدا على شجاعته...زيادة على الدور الذي كان يقوم به كأحد قادة المقاومة المسلحة،فقد كان شديد التواضع.وقد قال لي غير ما مرة "إننا نحن المقاومون لا يجب أن نعرف عندما نحصل على الاستقلال،وأن نبتعد عن الأضواء،وكانت لديه قناعة بأن ما يقوم به يدخل في نطاق الواجب الوطني."

-"إن الزرقطوني يشكل إحدى الركائز الأساسية التي يتوقف عليها تنظيمنا ،كان بطلا جسورا مثله مثل محمد منصور والذي لاقى من التعذيب مالا يستطيع بشر تحمله عندما ألقي عليه القبض،وكان الاثنان من طينة نادرة في حركة الفداء".

-الحسين برادة:

-"هكذا كانت معرفتي بهذه الشخصية الوطنية وهذا المجاهد الفذ الذي يجسد أروع صورة لجيله حيث الصدق والوفاء والشجاعة والإقدام،لقد كان رحمه الله شابا وسيما رضيا متحفزا،وكان العمل الصعب هو خياره،عرفته وهو في السابعة والعشرون من عمره،وكله أمل وتطلع لحرية المغرب واستقلاله."

-"..وكان سعيه حثيثا على إنشاء الخلايا والتنظيمات السرية...بفضل ما اضطلع عليه من مهام في مجال التنسيق بين جماعات فاس...ومراكش و...البيضاء.وبهذه الشجاعة النادرة تمكنت المنظمة من إزعاج الكيان الاستعماري وهز أركانه ..وفسحت المجال لتأسيس"جيش التحرير الوطني" وهي المرحلة التي كانت هدفا وحلما راود أخانا الشهيد وكان يخطط لها ويدبر إلى أن نال الشهادة ذات جمعة مباركة..فرحم الله الشهيد محمد وأدخله فسيح جناته."

بعد سنتين على عودة محمد الخامس وإعلان استقلال المغرب سيلقى الملك خطابا مؤثرا أمام قبر الزرقطوني هناك بمقبرة الشهداء حيث ووري جثمانه أخيرا،ومما جاء في كلمات ابن يوسف والتي تعكس المحبة الخاصة لهذا الشهيد الشجاع لدى المغاربة ملكا وشعبا:

-"أيها البطل الشهيد،شاء الله عز وجل أن نقف على قبرك،لا لنبكي شبابك الغالي،فإن أمثالك لا تقام ذكراهم بالبكاء،ولا لنجدد التعزية لأهلك،فإن فقدانك أعظم شرف أصبحت تعتز به أسرتك".

إنها شهادات مرصعة من جواهر تلك التي خلدت روح الشهيد الزرقطوني،هذا الرمز الخالد الذي لا تكاد مدينة في المغرب إلا وتجد اسمه قد أطلق على شوارعها أو مدارسها أو مآثرها العمرانية عرفانا لروح أبية آثرت الذود عن حمى الوطن والدين.

ولعل خير مثال على حضور أيقونة الفداء في ذاكرة المغاربة ما أخبرنا به الصحفي "لحسن لعسيبي" الذي ألف كتابا أسماه"حول سيرة الشهيد الزرقطوني" والذي صدر عن دار سوشبريس للتوزيع حيث يقول:

-"في **18** حزيران/ يونيو من سنة **2000** ،وفي عز الصيف طرحت سوشبريس خمسة آلاف نسخة من الكتاب بيعت عن آخرها-علما أن هذا العدد ضخم جدا بالنسبة للسوق المغربية- فطبعنا طبعة ثانية في أيلول/ سيبتمبربعدد ثلاثة آلاف نسخة نفذت هي كذلك،بل وترجم الكتاب إلى الإنجليزية من طرف جامعة مونتانا الأمريكية"

فلا يعكس هذا إلا شيئا واحدا: "أن المغاربة يعشقون رموزهم،ويحبون الغوص في ذكراهم."

أما أنت يا كبور- وأمثالك كثير- ممن اخترتم العيش بمذلة، وخدمة المعمرين السفلة، فلسان حال المغاربة فيكم ظل يتساءل على الدوام:

- ليتك يا كبور كنت في صف أبطال الفداء.

- ليتك سجلت اسمك في خانة الشهداء.

- أما وقد اخترت صف المعمرين الأعداء.

- فقد عدك التاريخ ضمن لائحته السوداء..

*الحكاية العاشرة:

حمان الفوطواكي مسئوول خلايا الفداء بمراكش الحمراء

على الطريق الوطنية رقم **8** وبينما تلك الطريق تحاذي الساحل رويدا رويدا مقتربة من مدينة الجديدة تتراءى أمامك على الجانب الأيسر بناية عالية مهيبة بمنظرها وشكل سورها العالي،أمامها شيد نصب تذكاري بالجبص الأبيض مكتوب عليه :

-"هنا يرقد شهداء المقاومة".

لوحة تذكر كل المارين والمقيمين على سواء أن حمان الفوطواكي كان من هؤلاء الشهداء،الذين ضحوا بالغالي والنفيس استرخاصا لوطن، وتضحية في سبيل استرجاع الكرامة والتحرر من ربقة الاستعمار الغاشم.

ولا يجد الملاحظ لهذا النصب إلا الوقوف اجلالا واحتراما للشهداء الثلاثة عشر الذي نفذت فيهم الآلة الاستعمارية حكم الاعدام قبيل تحقيق المغرب لاستقلاله بأشهر قليلة.ومنهم الرفاق الثلاثة لحمان.حمان الذي

أريد له أن ينقل على جناح السرعة من المحكمة العسكرية بمراكش إلى سجن العاذر بالجديدة وينفذ في حقه الحكم بأمر من طاغية المدينة الحمراء الباشا التهامي الكلاوي.

*الابن يتذكر الوالد الشهيد:

حمان الابن الثاني للفوطواكي والذي اختير له نفس اسم والده بعدما لم تجد عليه الأيام برؤية أبيه إذ كانت الأم حاملا به لما نفذ حكم الإعدام بالرصاص على الشهيد حمان صباح يوم سبت مشهود في **19** من نيسان/أبريل من العام **1955**م.يخبرنا حمان الابن عن حمان الأب قائلا:

-"والدي من مواليد **1912**(هذا الذي يصادف تاريخ توقيع الحماية الفرنسية على المغرب) واسمه الحقيقي بريك بن ابراهيم،يحكى أنه كان إنسانا متخلقا يخاف الله،وطنيا،غيورا على بلده ودينه وملكه."

وهكذا قدر لحمان الفوطواكي وكان هذا اسمه الحركي الذي أطلقته عليه المقاومة،وهو مشتق من اسم قريته النائية "فوطواكة" التي تنتصب عند سفوح جبال الأطلس الكبير وسط أشجار الزيتون،بسان معظمهم فلاحين ومربي ماشية أمازيغ،في حين كانت تحتكر التجارة والحرف اليدوية من طرف جالية يهودية تتكلم العربية،هناك على مقربة من دمنات وغير بعيد عن "كلاوة" تلك القبيلة التي تتمرت على أهالي المنطقة حتى سامتهم أنواع العذاب والسخرة بقبضة حديدية من الكلاوي التهامي.

ولعل "الكلفة" وهي تلك السخرة التي كان يتوجب على الأهالي أداءها للاستعمار وأتباعه من القواد والأعيان صارت أكثر ثقلا،بل وازدادت بحمل آخر أكثر شرا،حينما نودي ب:

-"التجنيد الإجباري علىأبناء القرويين بعدما نشبت الحرب العظمى في العام **1914**م،وكان على المغاربة أن يضحوا بأبناءهم في سبيل حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل،اللهم تزامن اندلاعها مع جثوم الاستعمار على صدورهم،هذا الاستعمار الذي جيش المقدمين والشيوخ لفرض التجنيد ومصادرة ممتلكات من رفض أن يسلم ابنه للموت."

*الهجرة إلى الشمال:

في هاته الظروف الحالكة اختار حمان الشاب الرافض للذل والمهانة أن يترك فوطواكة ويهاجر شمالا،لعل في الهجرة واقعا خيرا مما يعاينه ولا يستطيع تغييره،فاختار مجالا حيث تغيب فيه القبضة الفرنسية التي يمقتها ويحضر فيها الوجود الإسباني الأقل تشددا،وذلك على غرار العديد من

الوطنيين الذين اتخذوا من "الهجرة للشمال طريق الألف ميل الذي يبدأ بخطوة هناك وينتهي بالاستقلال والتخلص من الاستعمارين معا.
وقد شاءت الظروف أن يتوقف مسار حمان في تطوان،وهو يعلم أن الإسبان لن يجبروه على المشاركة في الحرب بعدما فضل قادتهم أن يتخذوا الحياد سبيلا،فاستقر الشاب الفوطواكي بالمدينة وصار يعمل في معمل يمتلكه أحد المعمرين الإصبنيول.
في تطوان استقر المقام إلى حين،وما لبث أن التحق به أربعة شبان من فوطواكة،فاتفقوا جميعا على أن ينخرطوا في صفوف الجيش الإسباني،حيث أثبت الجندي حمان عن شجاعته ورباطة جأشه وأنه مقدام لا يهاب الموت،كان ذلك حينما حوصرت الفرقة العسكرية التي يعمل فيها،وقد استتب بهم العطش وكادوا يهلكون لولى أن حمان تسلل ليلا بقوارير للماء من أجل ملئها من نقطة الماء الوحيدة التي كانت فرقته قد فقدت السيطرة عليها،فانتظر حتى هدأت الحركة واستغل الليل الحالك وصار يملأ القوارير غير أن إحداها اصطدمت مع الأخرى لكونها كانت مصنوعة من الألمينيوم،فأحدثتا صوتا سمعه الحراس فسارعوا إلى إطلاق النار في اتجاه الصوت.
حينها التجأ حمان إلى ربوة قريبة واحتمى فيها،وانتظر حتى هدأ أزيز الرصاص وملأ المكان نقيق الضفادع،فخرج من المكان وهو يزحف على بطنه مصحوبا بقوارير الماء،هذا الذي جعل رفاقه يثنون عليه بعد أن أنقذهم من موت محتم بكوب من الماء روى ظمأهم،وبتلكم التضحية رقي حمان البطل الشجاع إلى مرتبة"قائد مائة".
غير أن أوضاع الريف تغيرت لما أعلن سيدي عبد الكريم ثورته الكبرى على الإسبان،وبدأت ضربات أمير الريف تقض مضجع الاستعمار الإسباني،وتناهت الأخبار إلى حمان الذي سارع إلى استغلال رتبته كملازم ليضع خدماته بين يدي ثوار سيدي عبد الكريم،مقدما لهم كل ما يستطيعه من أخبار وخطط للعدو،مضحيا بذلك بعمله ورتبته في سبيل نصرة إخوانه من المقاومين.
وما لبثت المخابرات الإسبانية أن كشفت تورطه مع ثوار الريف،فاستغل اندحار جيش الإسبان في أنوال الخالدة التي دمر فيها الأمير المجاهد جيش الإسبان بكامله مرغما قائدا دون سيلفيستري على إفراغ مسدسه في رأسه تجنبا لعار الهزيمة الماحقة التي تكبدتها قواته يوم **21** من يوليوز من العام **1921**م.أما حمان فسارع متسللا إلى مدينة طنجة التي

كانت تحت حكم القناصل الدوليين بمساعدة امرأة اسمها"ارحيمو" شرط أن يتزوجها.
وفي طنجة الدولية نجى حمان من عيون الإسبان،ونفذ الشرط وتزوج بالمرأة الطنجاوية حيث مكث بضع شهور قبل أن يقرر العودة إلى فوطواكة برفقة ارحيمو التي كانت تخفي له مسدسه عند كل نقطة تفتيش.
*موعد مع المقاومة:
في بلدته قضى حمان ثلاثين سنة من حياته فلاحا ومزارعا كأهل قريته،كان يشعر بالتعسف والجور الذي يطأ الأهالي من طرف أعوان وأذناب الاستعمار،ويصله عن قرب صدى وجبروت باشا مراكش التهامي الكلاوي،ومن حين لآخر كان يزور مراكش فيقف عن قرب على مجريات الأحداث التي خلقتها ظروف الحرب العالمية الثانية،وتأثيرها الكارثي على الأوضاع الاقتصادية للمغاربة بعدما مسهم الجوع وهددهم الجفاف من كل حدب وصوب.
ثم أطلت الخمسينيات على وضع ساخن بمراكش الحمراء،بعدما تزعم الباشا الكلاوي جبهة الصراع مع السلطان محمد بن يوسف والتي انتهت فصولها بمؤامرة **20** غشت **1953**م،حينما عزل السلطان الشرعي ثم نفي من طرف الإقامة العامة نحو مجاهل إفريقيا،بل وتزعم الكلاوي مراسيم تتصيب ابن عرفة سلطانا جديدا.
حينها تحرك حمان نحو مراكش وجدد اللقاء مع رفاق له سبق وأن راودتهم معا فكرة المقاومة،وكان على رأسهم الفقيه البصري،وما لبث محمد الزرقطوني أن التحق هو كذلك بمراكش ومعه حسن الصغير وعبد العزيز الماسي وذلك بهدف عرقلة مخطط تنصيب ابن عرفة بمراكش الذي كان مقررا في مسجد الكتبية.وحينها أطلق الزرقطوني صفارة وسط الحشود نتج عنها ذعر كبير وفرار للمصلين وحالة هلع أربكت الإقامة العامة وأتباع الباشا الكلاوي.
*خلية حمان الفوطواكي.
يشار إلى ها الخلية تأسست بعد تأسيس خلية الدار البيضاء وأعضاءها ممن نجوا من بطش الكلاوي على طلبة كلية بن يوسف ومنهم الحسين البزيوي ومحمد السوسي ومولاي مبارك وبوجمعة الفرملي وعمر السفاج ...تلك الخلية التي باشرت إلى حمل السلاح في وجه الاستعمار وأعوانه بتنسيق مع خلية البيضاء،وكان مسدس حمان الذي استقدمه من تطوان أولى الأسلحة التي حصلت عليها خلية مراكش.

وقد تطلب الأمر من حمان السفر نحو البيضاء لاستقدام الذخيرة وتجريب السلاح بعدما اتصل بالمقاوم أيت القايد النشاشبي والذي بواسطته تعرف الفوطواكي على الزرقطوني واختارا معا درب الفداء بكل من مراكش والبيضاء.حيث كان اللقاء بحضور مولاي عبدالسلام الجبلي بالمدينة القديمة ونال حمان ما كان يرجوه من الإخوان.

*ضربات جماعة حمان الفوطواكي ضد الاستعمار وأذنابه:

يتحدث المقاوم الفدائي الحاج الحسين برادة عن ها ته الخلية قائلا:" لقد كانت الجماعة التي تأسست بمراكش على يد الأخ حمان تقوم بأعمال جليلة وبطولية تستحق الذكر،ومن تلك الضربات التي كانت تسددها لرؤوس الاستعمار والبارزين من الخونة بكيفية محكمة جعلت الناس يسخرون من قوة الاستعمار ،إلى حد أنه كلما عمدت سلطات الحماية إلى الطواف بصنيعتها ابن عرفة ...إلا وتصدت لها جماعة حمان الفوطواكي".

ولعل من أبرز تلك المحطات الفدائية التي أظهرت معدن تلك الجماعة نذكر :

-"حادثة مسجد بريمة":حيث هاجمت جماعة حمان موكب الدمية بوابل من القنابل أغرقت السلطان المصطنع في وابل من الدماء،جرحت عينه وكادت تودي بحياته،وأصابت في مقتل عددا من حاشيته،لينقلب الموكب إلى حالة استنفار قصوى وسط الهلع وصوت سيارات الإسعاف،بينما باشرت السلطات الاستعمارية لاعتقال كل مشتبه به ولو كان من المواطنين الأبرياء.

-"استهداف الإقطاعي الباشا الكلاوي": ها ته العملية تمت بعد أسبوعين على حادث المسجد،وأراد من خلالها حمان وجماعته قطع رأس الأفعى والمدبر الرئيسي لمؤامرة **20** غشت باشا مراكش وأحد قواد الاستعمار،فعمدت الجماعة إلى إلقاء قنبلة عليه بمسجد الكتبية لكنه نجا بأعجوبة كما نجا ابن عرفة،إذ أن الشظايا أصابت زمرة من بطانته فكاد يجن جنونه من الغضب،وبادر على الفور إلى إفراغ مسدسه في رأس وصدر الشاب الشهيد أحمد أوقلا.

-"اغتيال المندوب العسكري موريس موني" كان هذا الطاغية أحد أبرز رموز الاستعمار،يتسم بروح العداء للوطنيين وكل محبي الحرية والاستقلال،وكان يمتلك سلطة مطلقة في التحكم السياسي والقضائي على مستوى جهة مراكش،وكان يداوم على حضور محاكمات الفدائيين

باستمرار،كمندوب مخزني،وذلك لتوجيه القضاء والتأثير عليه قصد استصدار أحكام قاسية ومجحفة في حق رواد الحركة الوطنية.
وقد حانت ساعة الحساب مع موني هذا حينما عمد إلى استصدار فتوى من ضعاف النفوس وممن كانوا يسمون علماء مراكش،وهي فتوى كانت تحرم العمل الفدائي وتعتبره فعلا إرهابيا لا يقره الدين ولا يدخل في بابا الجهاد،يخبرنا المقاوم محمد الحبيب الفرقاني عن هذا الأمر قائلا:
-"هو الذي استدعى علماء مراكش وجمعهم بكلية ابن يوسف،وطلب منهم أن يصدروا فتوى باستنكار العمل الفدائي...وقد وافق العلماء الحاضرين على مطلب المندوب المخزني،وحرروا فتوى،وساقوا في فتواهم(الملفقة)تحريفا للدين والكتاب الكريم".
وفور إعلان ها ته الفتوى الملفقة ونشرها في صحف الإدارة الاستعمارية سارع حمان إلى لقاء رفاقه عاقدا العزم على التصدي لهاته المخططات الجهنمية،واتفق الجميع على تصفية هذا الطاغية وضرورة التعجيل في ذلك،وبالخصوص لما علموا باستباحته لحرم مسجد لبن يوسف ودخوله للباحة منتعلا حذاءه القذر،دون مراعاة مشاعر المصلين.
حينها انتدب الفوطواكي أربعة من فدائييه وهم :
-محمد بن العربي الهوزالي.
-علي رضوان المسفيوي.
-الشهيد مبارك بن بوبكر الدكالي.
-الشهيد علال ابن أحمد الرحماني.
وكانت لهم خبرة ودراية بانجاز العمليات الفدائية الفورية،لذا زود الكوموندو الشجاع بالأسلحة والذخيرة وطلب من الأربعة :
-تصفية الطاغية موريس موني: وفي مساء يوم السبت **15** ماي **1954**م،توقف مندوب الحكومة الاستعمارية بسيارته أمام مدخل منزله الكائن على مقربة من باب دكالة،وكان عائدا لتوه من سهرة سينمائية منتشيا،يسحب سيجارته في استعلاء،معطيا الإشارة المتفق عليها مع البواب وهي عدد ومضات متفق عليها مسبقا،ولم يكن يدري حينها أن ومضات قلبه الظالم ستنطفئ بنيران فدائي جماعة حمان إلى الأبد.
وهكذا عاجله الفدائيون الأربعة برصاصة أخطأته،فنزل سريعا وتسلل نحو الدرج كالجرذ مذعورا،في محاولة إفلات يائسة،لكن رصاصة مصوبة بإحكام اخترقته ليسقط جثة بلا حراك،تحت مراقبة من حمان

الفوطواكي الذي كان خارجا يترقب نجاح هذا العمل النوعي الذي استهدف رأس الاستعمار وأحد مديريه الكبار.

-"استهداف القائد العسكري أوترفيل" وقد كان هذا الجنرال مسئولا عن منطقة الجنوب،فعمدت خلية حمان الفوطواكي إلى اغتياله هو كذلك،وبعد ترصده صوبت عليه عدة رصاصات اخترقت واحدة منها بطنه،غير أن المنية لم تعاجله إذ نقل على وجه السرعة نحو المستشفى ثم بعدها نحو فرنسا للعلاج.وقد كانت ها العملية من الشجاعة بمكان،حيث نفذت بساحة جامع الفنا وأما مرآى ومسمع من المارة الذي لم يخفوا غبطتهم ومباركتهم وتحمسهم لمثل هذه العمليات الجريئة.

-"محاولة تصفية المقيم العام كيوم" وكادت أن تكون أنجح العمليات وأكثرها تأثيرا لو كتب للقنابل التي استهدفت الجنرال كيوم منفذ مؤامرة عزل السلطان ابن يوسف ونفيه،فبينما نظم الباشا الكلاوي زيارة رسمية للمقيم العام ليظهر للعالم أن رأس الإقامة العامة محل حفاوة وترحيب من لدن المغاربة،إذ بالتهامي يفاجئ بخلية حمان تظهر في المكان. وبينما الموكب الرسمي يخترق شوارع مراكش إذ بوابل من القنابل اليدوية تنهال كالمطر عليه،فيسقط خمسة قتلى من الحاشية ويجرح العديد بينما ينجوا كيوم بأعجوبة.

-أية شجاعة ورباطة جأش كنت تتمتع بها يا حمان أنت ورفاقك؟؟

-وأية خبرة قد اكتسبتموها في استهداف رؤوس الإقامة العامة وأذنابها؟؟

في مراكش التي شهدت بطولات حمان،أقيمت مؤسسة تعليمية باسم هذا الفدائي

*القاء القبض على حمان الفوطواكي:

كان حمان يدرك أن الباشا الكلاوي قد علم بأنه هو الرأس المدبر لكل تلك العمليات الفدائية النوعية والتي كانت تستهدف بالخصوص رؤوس

الإدارة الاستعمارية بل واستهدفت حياته هو كذلك،وجعلت خروج ابن عرفة مغطى بالرعب والدماء،وقد حصل الطاغية الكلاوي على مبتغاه حينما ألقي القبض على المقاوم علال العسكري بعدما كلفه حمان الفوطواكي بعمل فدائي يستهدف متجرا لأحد العملاء بحي السمارين،غير أن قنبلته لم تنفجر فقبض عليه رجال الباشا الكلاوي وأعدوا له جلسات تعذيب يشيب لها الرضيع،وتحت التعذيب ذكر اسم حمان وجماعته الفدائية.

ومرة أخرى تصيب الخيانة أحد المقاومين في مقتل،بعدما عمد شقيق لزوجة حمان وكان يعمل حلاقا إلى إخبار المقدم بمكان اختباء الفوطواكي،والذي ظل طيلة عشرة أيام على اعتقال العسكري يتنقل في سرية تامة،بل إنه هاجر للبيضاء لكنه عاد خوفا من اعتقال أفراد أسرته على عمل لم يقترفوه،فقط لأن حمان من تلك العائلة.

ولم تمضي سوى نصف ساعة على خروج الشقيق الخائن حتى سمع حمان وزوجته طرقا قويا،فلما فتح حمان الباب هجم عليه أعوان الباشا الكلاوي،كان ذلك يوم **9** غشت من العام **1954**م.لم يستسلم حمان بل تعارك معهم وكاد أن يقتل أحدهم لولى أن شلوا حركته واقتيد إلى مركز الشرطة بلباس نومه.تلك الألبسة التي مزقت فوق جسده،أما حمان فقد ابتلع كبسولة السم –كما فعل رفيقه حسن الصغير وكما سيفعل لاحقا الزرقطوني- لكن المنية لم تعاجله بعدما رفض جسده أن يتقبل السم القاتل.

كان حمان يدرك أنهم سيبالغون في تعذيبه بعدما دوخهم و قذف في قلوبهم الرعب من هذا الأسد الفوطواكي الشهم.دخل المقدم وعمداء الشرطة وأعوانهم من الخونة كالكلاب المسعورة إلى بيت حمان،فتشوه وقلبوا أثاثه رأسا على عقب،لعلهم يجدون سلاح حمان،فما وجدوا إلا عبارة مكتوبة بالجبص الأبيض على الحائط:

-"يحيى مولاي محمد بن يوسف ويسقط الخائن ابن عرفة".

*الاستنطاق المر:

في مركز الشرطة فتحت على حمان أبواب جهنم،سئل عن السلاح،ورفاق السلاح،عن من يزودهم بالقنابل،عن أسماء من يشتغلون معه...كل تلك التساؤلات ظلت معلقة،فلم يكن حمان الفوطواكي من طينة هؤلاء الذي ينهارون بسبب التعذيب،كان جلدا صبورا من طينة نادرة من هؤلاء الفدائيين الأحرار.

ظل حمان يخبرهم أنه يعمل وحده،وأن السلاح يشتريه من السوق السوداء،طبعا لم يكونوا ليصدقوه،بل زادوا في تعذيبه بالكهرباء،وتقتر الماء،ووضعه في أماكن تختنق معها أنفاسه بلا شفقة ولا رحمة،وحمان صابرا محتسبا،ظل هذا الوضع المحزن طيلة ثلاثة أيام بلياليها إلى أن نقل حمان عبلر سيارة جيب مكشوفة ويداه مقيدتان بالأصفاد ورجليه بالسلاسل حتى يكون عبرة لمن تسول له نفسه الفداء على وطنه المسلوب.

كان آثار الضرب واضحا على جسده والحراس محيطون به من كل جانب وهم شاهرين أسلحتهم،أما حمان فكان كلما لمح عضوا من خليته يشير عليه "باليد على الفم" ومعناها أنه لم ينطق لهم بأي اسم.

عبر جلسات مطولة من التعذيب تلقاها حمان حتى أغمي عليه يوما،واعتقد أهله أنه مات تحت التعذيب،ووصل الخبر إلى والديه،فتجلد والده صبرا واحتسابا،أما والدته فقد أغمي عليها يومين لما سمعت بالخبر،ولما استيقظت كانت تبكي وتدندن بالأمازيغية:

-"مول غايج كتفيخ زيت الغاز في اورمين اذي اكلوى سغ العافيت كتتس" ومعناها :

-"لو استطعت صب زيت الغاز على النصارى وكلاوة وأشعلت النار فيهم".

كان ذاك لسان حال أم حرة أبية أنجبت أسدا هصورا أرعب الخصوم،بل ,أفزعهم حتى وهو مكبل بالحديد..يحكي أحد أفراد عائلته عن مشهد اعتقال حمان حينما سمح لهم بزيارته فوجدوه ضاحكا مبتسما وهو يرتدي ملابس بيضاء وفي يده مصحف،استقبلهم وهو يهون عليهم الخطب ويخبرهم بفضل الجهاد والاستشهاد.

وفي الزيارة الثانية جاء والده،وكان رجلا طاعنا في السن وشيخا وقورا،أراد أن يضم حمان إلى صدره غير أن قضبان السجن منعته فصار يبكي بكاء مرا،بل وبكى جميع الحاضرين حتى الحارس متأثرين من هذا الحدث ذو المشاعر الجياشة.

أما حكاية الرعب فقد حدثت عند الزيارة الثالثة ويحكيها رفيق حمان وأحد أعضاء خليته "محمد اليزيدي".ذلك أنه حالما برز حمان من زنزانته وكان أولاد الحراس يلعبون في الساحة حتى توقفوا عن اللعب وفروا نحو بيوتهم،هذا الذي جعل اليزيدي يخاطب حمان بكلام يجمع بين الطرفة والتخفيف عن معاناة رفيقه:

-"سي حمان تتخلع النصارى الكبار على برا،وتتخلع النصارى الصغار وأنت في الحبس"

إن حمان الفوطواكي ظل يرعب الفرنسيين ومتعاونيهم حتى وهو قيد الاعتقال،بل ويزهق أرواحهم وهو في سجنه ذاك،وقد سقط أحد الخونة مقتولا جراء تطاوله على الفدائي حمان،حدث ذلك لما زاره هذا الخائن وكان يدعى "الخامسي" ويكون هذا أحد أزواج خالة زوجة حمان،فلما رأى حمان بدأ يشتم ويسب المقاومين وقال في حق الفوطواكي:

-"أنه مجرم وخماس،وسارح،شبع خبزا،بغى يحارب الفرنسيين لي عندهم الجيش منظم وسلاح.وهم ليجابو الخير البلاد.." وختم كلامه الخبيث :

-" لقد نال جزاءه المجرم القتال".

لم يكن يدري هذا الخائن الممجد للاستعمار أن ها الكلمات ستكون الأخيرة له،وسينال جزاءه ويخلد وطنه بتلك الكلمات الجبانة كأثر ما تكون النذالة...فقد كان عمر شقيق حمان قد سمع كل حديث الخمامسي هذا،ولم يلبث أن أسر بما قاله الخائن لأحد المقاومين الشجعان،والذي أردى صاحب الفرنسيين قتيلا حال خروجه من زيارة البطل حمان.

*المحاكمة :

كان حمان يعرف مصيره،وقد استعد لذلك بإيمان راسخ،وقلب من حديد،وكان يعرف أنه الإعدام لا محالة،ورغم المرافعات التي أبداها محاميه تجاهه،إلا أن الحكم كان قد أعد مسبقا،وحمان لم يتأثر ولم يرتعد لسماع الحكم الجائر ولم يتغير لونه حتى وكأن ذلك لا يعنيه،كل ما نطق به بضع كلمات زلزلت قضاة المحكمة وأصابتهم في حيرة:

-"أنا لا أخاف من الموت،لأن الموت واحد يلزمني،ولكني ندمت لأني لم أقتل أسود الوجه التهامي الكلاوي والخائن عبد الحي الكتاني".

ربما كان حمان قد ندم على أمور أخرى لم يرد كشفها لجلاديه حتى لا يظهر أمامهم بمظهر الضعيف الواهن،وفي الطريق ظل يكتم غيظه لما علم بتوقف المقاومة بمراكش بعد أسره،وكلماته المؤنبة التي أرسلها لرفاقه تنم عن نفس شعرت بمرارة توقف ما ناضل من أجله واعتقل وعذب للغرض نفسه،على أنه كان يلتمس بعض الأعذار لخليته التي فقدت رأسها واختبأ مناضلوها لحين تهدأ العاصفة بعدما انحنوا لها مجبرين.

أما رائحة الخيانة فكانت نفس حمان تمقتها،ظهر ذلك جليا في الحوار الذي نطق به لزوجته قائلا لها:

-"إن الزوج يعوض والأخ لا يعوض وأمرها أن ترحل من دار جدتها ولا تسكن مع شقيقها الخائن أبدا".
في الصباح الباكر نقل حمان الفوطواكي ورفيقيه مبارك بن بوبكر و علال الرحماني إلى سجن العادر بمنطقة الحوزية،وقد حاولت المقاومة تهريب حمان ورفاقه ووضعت لذلك مخططا غير أن تنفيذ الإعدام جاء قبل موعده بتوصية وضغط من عدو حمان الأكبر"التهامي الكلاوي" بعدما أراد هذا الطاغية أن يطمر كل الأدلة ضده،ويسكت صوتا قض مضجعه ولا يريد أن يفلت من قبضته،خصوصا وأن التهامي هذا كان يعرف أن مفاوضات استقلال المغرب ورجوع السلطان الشرعي ما تلبث أن تبدأ شاقة عسيرة.
صباح ذلك اليوم الحزين السبت **19** أبريل/نيسان من العام **1955**م،وقبيل أشهر قليلة على انتهاء مفاوضات إيكس-ليبان وإطلالة ربيع الحرية،كانت روح حمان ورفيقيه تفيض إلى بارئها بعدما دفعت ثمن الحرية الغالي،دماء طاهرة وأرواح أبية مناضلة تلك التي تمتع بها الفوطواكي ورفاقه من الفدائيين الذين:
- استرخصوا أرواحهم في سبيل حرية أوطانهم.
في مراكش حيث شهدت المدينة قصة مجد حمان وساحة نضاله وبعدها لحظة اعتقاله بعدما وشت به أذن خائنة ،يخلد اسم حمان بشارع كبير يذكر كل الخونة وأتباع الاستعمار وحتى رموز الحماية أن الشهيد يبقى حيا مخلدا بينما يتهاوى جلادوه كأوراق الخريف الصفراء.
على طريق الجديدة حيث لا يزال قبر الشهيد حمان داخل أسوار سجن العاذر تخبر كل من مر على ها البناية التي أريد لها أن تسكت أفواه الوطنيين فإذا بها تشيد نصبا تذكارية خارجها لتخبر كل من مر قربها أنه :
-"هنا يرقد الشهيد حمان،هنا ترقد روح الفوطواكي ذاك المناضل الإنسان،حمان الذي لم يترك ولا صورة له وما هو متداول عنه هي فقط رسم لأحد أبناء مراكش ممن أعجبوا بالشهيد البطل،حيث ستظل تلك اللوحة مخلدة في قادم الزمان."

*الحكاية الحادية عشر:

إدريس الحريزي:شهيد من سهول الشاوية

-أولاد حريز في ظل الاحتلال:

المعروف أن منطقة أولاد حريز شأنها شأن الشاوية كانت من أولى المناطق التي خضعت للمستعمر الفرنسي نظرا لقربها من الدار اللبيضاء،وذلك منذ الانزال الفرنسي في العام **1907**م، وقد هبت القبيلة بخيلها ورجالها في محاولة صد الغزاة،غير أن الروح الانتقامية التي نزلت بها تلك القوات الغازية بعد مقتل عمال السكة الحديدية بميناء المدينة الساحلية بالإضافة إلى تفوقهم عدة وعتادا جعل المجاهدين من أهل القبائل التي هبت لنصرة الدار البيضاء المحاصرة يتراجعون نحو سهول أولاد حريز والمذاكرة لتندلع بعدها المقاومة بالشاوية.

وهكذا شاركت قبائل عديدة في عملية رد الغزاة عن الشاوية كان منها قبائل زيان وتادلة،وطبعا قبائل الشاوية التي كان عليها الدفاع عن أرضها وأهلها،غير أن طبيعة المجال المنبسط لم يكن ليخدم مصالح القبائل المتحالفة،بل على العكس تماما فإن المواجهة أمام جيش متطور،يملك الأسلحة الفتاكة لم يكن بالنزال المتكافئ،حينها عجلت المواجهة بتراجع المجاهدين إلى ما وراء الجبال رغم الشجاعة التي أظهرها فرسان تلك القبائل التي هبت بشكل عفوي للدفاع عن حوزة الوطن والدين.

وهكذا خضعت منطقة أولاد حريز للمستعمر،وما لبثت سلطات الحماية أن صادرت أجود الأراضي الخصبة التي تتميز بها المنطقة،ووزعتها على

المعمرين الفرنسيين والقياد المتعاونين مع سلطات الاحتلال،بينما اتخذت من مركز برشيد مقرا لحكمها بالمنطقة،تتجمع فيه السلطة العسكرية والأمنية،بحكم قربه من الدار البيضاء وتوسطه مجال أولاد حريز،ووقوعه على الطريق الرابط بين مراكش والبيضاء.

-بطولات نادرة من إنجاز فدائيي أولاد حريز:

ورغم ها ته المراقبة الحديدية على المنطقة،إلا أن أولاد حريز لم تكن لترضخ بالكامل للاحتلال، ولم يكن ليسكت أبنائها على مصادرة ممتلكاتهم،والاستحواذ على أراضيهم،فكان العديد من أبناء المنطقة يستغلون ضعف المراقبة لينجزوا أعمالا بطولية تثبت رفضهم للمعمر وأعوانه،ولعل جملة ما استطاعوا القيام به كان هو:

-إضرام النار في ضيعات المعمرين التي تحولت بقوة قاهر من أيديهم إلى أيدي المحتل،فكانت الكثير من الضيعات تظهر من بعيد وهي تلتهمها النيران،ولا يعرف الفاعل،رغم خضوع المنطقة بالكامل للمراقبة الفرنسية.ولعل أشهر تلك العمليات الفدائية ما قام به المقاوم الحريزي محمد بن المعطي ضريف أحد سكان دوار بوهالة،حينما اتفق رفقة عشرة من أصدقائه للهجوم على ضيعة المعمر الفرنسي المتواجدة على مقربة من بوسكورة،وقد انتظر ضريف ورفاقه حتى حل الصيف وأينعت السنابل،واصفر المحصول لتتسلل تلك الفرقة الفدائية نحو "ضيعة لابيسا" وتحولها إلى جحيم على مالكيها.

سيلقي درك المنطقة القبض على ضريف ورفاقه،حيث سيتم محاكمتهم وإيداعهم سجن عين البرجة بالبيضاء،وقد ظل هؤلاء الفدائيين رهن الاعتقال حتى أفرج عنهم مع عودة السلطان محمد الخامس وحصول المغرب على استقلاله.ولسخرية القدر أن رفاق ضريف سيحصلون على "صفة مقاوم" باستثناء هذا البطل الشهم الذي خرج من السجن مصابا بالتهاب رئوي أقعده مستشفى بن احمد لمرضى السل،ولما تماثل للشفاء وتقدم بالوثائق المطلوبة رفض طلبه بذريعة التأخر في تقديم الملف.

وهكذا غادر الفدائي ضريف دون تعويض،متحسرا على نكران الجميل الذي وجده في مسؤولي مغرب دافع عنه وسجن بسببه،فقد كانت نفسه الأبية تعادي النصارى الذي استطالوا على البلاد،تاركا جهاده في سبيل الله.هذا ما كان يخبر به مقربيه من قبيل الجيلالي الطهير الذي أورد قصة ضريف وغيره من مقاومي أولاد حريز.

-إتلاف خط الهاتف والبريد: وقد كان يحدث ذلك باستمرار،ورغم تشديد المقدمين و الشيوخ وسلطات الإقامة العامة المراقبة على أعمدة الهاتف إلا ذلك لم يمنع من تسلل بعض شجعان المقاومين لتوجيه ضرباتهم نحو تلك المنشآت الفرنسية التي كانت تشكل على الدوام أداة في خدمة الغزاة، ووسيلة تستطيع بها سلطات الحماية تسريع عملية القبض على الفدائيين.

-تصفية رموز الاحتلال:كثيرا ما حدثت تصفيات جسدية ضد المتعاونين مع المعمر الفرنسي،من شيوخ ومقدمين ومخبرين،ومن تلك العمليات البطولية "عملية اغتيال الدركي فابير" والتي نفذها المقاوم عبد السلام برشيد في العام **1943**م،حيث أرداه قتيلا برصاصة صوبها نحو رأسه دون أن يخطئه.

-إدريس الحريزي بالدار البيضاء:

لما كانت برشيد مركزا صغيرا يسهل على الإقامة العامة مراقبته،ورصد تحركات أهله بكل سهولة قرر عدد كبير من المقاومين الشباب الحريزيين نقل عملياتهم إلى المدينة المجاورة الدار البيضاء، فهناك المجال أكبر،والخلايا الفدائية أشد نشاطا،وأكثر تنظيما،كما هو الشأن مع الشهيد المكي بن عمر،والشهيد بوشعيب بن مقداد،عبد الله فردوس وغيرهم من الفدائيين الذي أرعبوا ببطولاتهم هؤلاء الغزاة المحتلين.

وفي هذا السياق لمع اسم الشهيد"ادريس بن محمد الفقري الحريزي" الذي اختار هو كذلك كأبناء قبيلته التوجه صوب البيضاء،حيث انخرط في صفوف خلية الزرقطوني،وقد اتخذ من "مجيدل" اسما حركيا يستطيع به أن يموه مخابرات المراقبة العامة التي لا تنام لها عين، ولا يغمض لها جفن وبالخصوص لما أقدمت على مؤامرة نفي السلطان الشرعي للبلاد محمد بن يوسف في أواخر غشت من العام **1953**م.

-إدريس الحريزي ينفذ ضربته الكبرى:

لما ألقي القبض على الشهيد الزرقطوني في الدار البيضاء يومه الثامن عشر من نونبر **1954**م،كانت خلية البيضاء التي أسسها الراحل قد اتخذت قرارها في الرد بقوة على الإدارة الاستعمارية،حينها برز على مسرح الأحداث فدائي شجاع،قبل عن طواعية تنفيذ إحدى أخطر العمليات الفدائية التي نفذتها خلايا المقاومة،ولم تكن تلك الشخصية إلا الشهيد إدريس. هذا الفدائي الذي أوكلت له مهمة اغتيال أحد أبواق الاستعمار وأعمدته بالدار البيضاء بمعية رفيق نضاله ابراهيم فردوس،إنه الدكتور "إيميل إيرو" المدير العام لمجموعة"ماص" الاعلامية والتي كانت تصدر عنها صحف تدين بالعداء التام للوطنيين منها"لافيجي ماروكان" و"لوبوتي ماروكان" .

وهكذا بعد مرور أسبوعين على استشهاد الزرقطوني خرج الحريزي وفردوس متعقبين الدكتور إيرو وهو خارج لتوه من شقة صديقته،في طريقه نحو مقر جرائده التي تنفث سمومها في وجه رجال الحركة الوطنية،ولما اقترب من بناية بنك المغرب الحالية وجد قبالته الفدائيين عند محل بيع أواني ديكور منزلي،حيث ستكون ذلك اللقاء الأخير لهذا الصحفي الامبريالي.

وماهي سوى لحظات حتى صوب ابراهيم فردوس رصاصة قاتلة في رأس الدكتور إيرو أردته جثة هامدة،وقد كانت قيادة العملية الفدائية وعلى رأسها المقاوم حسن الأعرج قد أوكلت مهمة إطلاق النار لفردوس،بينما يتكلف إدريس الحريزي بتغطية العملية وحماية فردوس،غير أن الحريزي لم يتمالك أعصابه وهو يتذكر بمرارة حادث تصفية رفيقه الزرقطوني،فصار يطلق النار على كل معمر صادف وجوده هناك.

وقد تمكن ابراهيم فردوس من الفرار،بينما أحاطت قواة البوليس بإدريس الحريزي الذي ألقي عليه القبض واقتيد إلى مخفر الشرطة،كان ذلك بعدما هزت تلك العملية النوعية عملاء الإدارة الاستعمارية وأرعبت أبواقهم الإعلامية،تلك الأبواق التي كانت قد نشرت صور الحريزي وفردوس والزرقطوني معتبرة إياهم أخطر المطلوبين لعدالة المستعمر.

غروب يوم من أيام عام 1968
ملتقى شارع ادريس الحريزي مع شارع لالة اليقوت

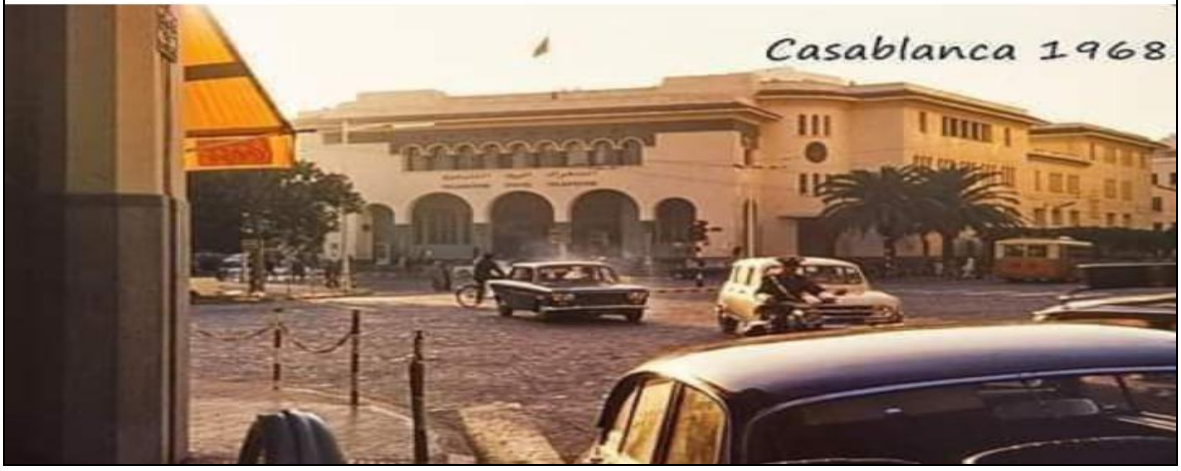

وهو الشارع الذي كان مسرحا للعملية البطولية التي أودت بعراب الاستعمار الدكتور"إيرو".

-إدريس الحريزي آخر الشهداء المغاربة:

بعدما ألقى البوليس الفرنسي القبض على إدريس الحريزي بالشارع الذي سيحمل اسمه وذلك تخليدا لمسار هذا الفدائي العظيم،اقتيد إدريس إلى الاعتقال،ثم رحل على جناح السرعة نحو سجن العادر بالجديدة،وهناك سينفذ الاستعمار حكمه الجائر في حق هذا الفدائي الشهم بتاريخ **02** غشت **1955**،أي بعد عودة السلطان محمد بن يوسف من المنفى بمدة يسيرة،وقد نفذ ذلك الحكم انتقاما من إدريس الحريزي كي لا يطاله العفو بعد اعلان الاستقلال،شأنه شأن الشهيد حمان الفوطواكي. وقد تشابهت نهاية إدريس الحريزي مع نهاية حمان الفوطواكي:

-فكلا الفدائيين نفذ فيه حكم الإعدام قبل أشهر من حصول المغرب على استقلاله.وفي السجن نفسه وبالطريقة ذاتها: "رميا بالرصاص أمام أعين رفاقهم".

-وكلاهما سارعت الإقامة العامة على تنفيذ حكمها الظالم حتى لا ينجوا الشهيدين من أفعالهما التي اعتبرتها الإدارة الاستعمارية عمليات إجرامية،ولم تكن لتسمح بالتساهل مع منفذيها.

ربما كان الاختلاف الوحيد في تلك النهاية الحزينة للبطلين هو أن حمان البطل المراكشي كان يتعقبه في تسريع الحكم ضده عدوه اللدود "الباشا الكلاوي" الذي تدخل بكل ثقله لدى جلادي سجن العاذر لكي لا يخرج الفوطواكي سالما من سجنه الأخير،أما إدريس البطل الحريزي فكانت تهمته ثقيلة عند الإدارة الفرنسية التي اعتبرت تصفيته لأحد عرابي الاستعمار بمثابة أشهر الاغتيالات التي تكبدتها منذ حلت بالمغرب وأخضعته لاحتلالها المقيت.

لكن تلك الإدارة الاستعمارية كانت تدرك مخاطر وجود فدائيين كإدريس وحمان وغيرهم كثير،ممن وهبوا أرواحهم في سبيل أوطانهم،فلم تشأ أن تغادر المغرب وقد أبقت على حياتهم بعدما أذاقوها العلقم،فكان أروع تخليد لهم هو:

-تغيير أسماء شوارع ومؤسسات كانت تتسمى سابقا بأسماء جلاديهم الفرنسيين بأسماء ك إدريس الحريزي وعلال بن عبد الله وحمان الفوطواكي وابراهيم الروداني ورحال المسكيني ... حيث ستظل أسمائهم تذكرة عودة إلى أعمالهم الخالدة.

*الحكاية الثانية عشر:

عبد الله الشفشاوني:الحرفي المناضل

لم يفارقني الزي التقليدي،كان علامة على هويتي وصدق وطنيتي

في فاس كانت البداية،بداية عمر قصير ،قصير جدا...لكن الإنسان لا يخلد بطول الأعمار،إنما بما خلفه من آثار.عبد الله كان اسمي،كان أحب أسماء الله إلى الله..كنت كذلك حقا فلم أعبد سواه،لقبوني بالشفشاوني،كانت تلك عادة أهل فاس في تسمية الوافدين على مدينة المولى إدريس بأسماء بلادهم الأصلية،فكان لقبي ملتصقا بشفشاون تلك المدينة الخلابة الجبلية.

لا أذكر شيئا عن شفشاون ولا عن أصل العائلة وجذورها التاريخية،ربما كان القاسم المشترك لأهل هاته المدينة هو أصولهم الأندلسية،كنت أدرك ذلك من لون عيوني الزرقاء وسحنتي البيضاء وشعري المائل إلى شقرة لا تخفي أصولي الجبلية.ما أذكره أن الجيران لما كانوا يودون الحديث عنا يقولون:

-هناك في زقاق فاس القديم،قرب دار السكافة تقطن عائلة الشفشاوني.

وهكذا ارتبط البيت بالمكان،واتبعت طريق والدي بأن أكون مثله إسكافيا أتقن الحرفة وأخدم الإنسان.فلطالما جسد الوالد لابنه قدوة حتى عدت السكافة والدراسة عندي أمر سيان..كان والدي يرسلني "للمسيد" أحفظ

ما تيسر لي من القرآن،أنصت جيدا حتى أستوعب ما يصدر عن فقيهما من فصاحة وشعر وبيان.
ولما بلغت الخامسة من عمري وكان ذلك على الأرجح في **16** ماي **1930**،سمعت أذناي تلتقط دعاء يصدح به الفقيه وباقي المصلين،كان دعاء بكلمات قصيرة ولحن حزين:
يا لطيف الطف بما جرت به المقادر
ولا تفرق بيننا وبين إخوتنا البرابر.
لم أستوعب الكلمات وما بها من رموز غامضة،فأسرعت نحو الوالد الذي شر ح فحواها، وأخبرني أن المستعمر يود التفرقة بيننا وبين إخوتنا الأمازيغ حتى تعم التفرقة ويحكم هو قبضته بسياسة"فرق تسد" وتلك خطط شيطانية دبرها الغزاة مدركين يقينا أنها ستعم عليهم بالفائدة.
أذكر وأنا صغير أن مساجد فاس أضحت تصدح باللطيف كل مساء وصباح،حيث يعلوا المصلين الغضب،كأن ألسنتهم هي من تحمل السلاح،كان التصدي "للظهير البربري" ولو بالدعاء يعد شكلا من أشكال الكفاح،فل اللسان فعل أمضى من أدق السنان.
كبرت وكبر معي دعاء اللطيف،كانت كلماته ترافقني كظل خفيف،ولما أردد هتستوقفني كلمة برابر،فأوجه أسئلتي التي تتوالى كعقد منثور على والدي المسرور،فيحدثني عن ثقافة وحضارة أجدادنا الأمازيغ،وكثيرا ما كان ينبهني أنهم يفضلون الاسم الأخير لما يضمنه من تعبير عن عشقهم للحرية عوض تلك الألقاب القدحية التي أطلقها عليهم أعدائهم الرومان في غابر الأزمان..أذكر أني أجدت صناعة البلغة الأمازيغية بكل إتقان وحرفية،وأكون في غاية السعادة لما أزينها بتلك الرقائق النحاسية المدورة وأضيف لها تلك الخيوط المذهبة ..أسرع بها إلى أمي لأقول لها:
-ها أنذا يا أماه،قد أتقنت الصنعة التقليدية،وصنعت يداي البلغة الأمازيغية.
تجيب أمي وهي مبتسمة والأمل يغزوا نواجذها البيضاء:
-أحسنت يا ولدي،أيها الحرفي الصغير ،عملك هذا خدمة للقضية الوطنية،كيف لا وحفاظنا على التراث ينقذ أمتنا من سوء المصير،فقد أدرك الشعب أن هذا الظهير يحمل بين يديه شر مستطير.
ظلت كلمات أمي تتردد في مسامعي،أجمع ما يقوله والدي بما نطقت به والدي لأكون أحجية ستشكل مغزى لوجودي،ومنها سأشق مسارا لحياتي،حياتي التي لن تتجاوز في المجمل عقودا ثلاثة،فالوعي كان قد

تشكل عندي في صباي،ومواجهة المستعمر لم يمر يوما دون أن تسمع عنه أذناي،ما يلبث قدري أن يتحول عن دائرة ما ختم به عمري.

وما هي إلا سنوات قليلة صرت بعدها شابا يافعا، ورشة والدي الذي انزوى لفراشة مريضا متألما،وقذفت قذفا نحو ثقل المسؤولية،فبرعت في السكافة وصرت حرفيا مسؤولا عن عائلة،فلم يكن الوقت ليترك لي مجالا للهو كأقراني من الشباب،فقد هذبني المسيد ورمت بي الحاجة نحو الحرفة اليدوية أواجه بالصبر كثير الأتعاب.

في فاس حيث ولدت،كانت المدينة لا تستكين،تشكل بؤرة لكل مقاومة ضد هؤلاء المحتلين،وحتى لما نقل الفرنسيون العاصمة إلى الرباط،ظلت شرارة المقاومة يؤطرها رجالات الحركة الوطنية فتشعل نارا تهدد هؤلاء الغاصبين،أذكر أنه وفي زمن الحرب وصلت إلى مسامعنا استعدادات مكثفة من الوطنيين،كلها كانت تسعى لتقديم وثيقة لا شك أنها سترعب الفرنسيين.

فجأة استفاقت فاس على حشود هائلة من المتظاهرين،كانوا شبابا ونساء وشيوخا غاضبين،إنه اليوم **11** من يناير من العام **1944**م يوم لا ينساه الوطنيين،كنت قد انخرطت في صفوف حزب الاستقلال والذي سارع أعضاءه إلى تقديم "وثيقة المطالبة بالاستقلال" عن الفرنسيين،ومنذ ذلك الوقت وأنا أسير خلايا الحزب واعيا بمسؤوليتي تجاه وطني،مسخرا كل قدراتي في سبيل غايتي بأن أسترجع وطني ومعها حريتي.

أطلت علينا الخمسينيات من القرن العشرين بخبر كان انتشاره كالنار في الهشيم،حين أصدر المقيم العام أمره بنفي السلطان محمد الخامس تحت وشاية أثيم،عريضة الباشا الكلاوي التي ضربت العرش العلوي في الصميم،ومعها انقض علال بن عبد الله على السلطان المصطنع ليخر بعدها شهيدا بسلاح الضابط كويزا لاسورطي وتنطلق معها الثورة المسلحة التي انخرطت فيها بكل همة حتى أربكت البوليس الفرنسي الذي اعتقلني عديد المرات،شاهرا في وجهي ووجهي رفاقي عشرات المحاكمات،حيث قضيت عدة شهور في سجون فاس والرباط إلى أن جاء يوم النطق بالإعدام،والذي كنت مستعدا له بيقين تام.

وبعدما أصدرت المحكمة العسكرية الفرنسية حكمها الجبان في حقي وحق رفاقي،بعد اتهامنا بتنفيذ عدة عمليات مسلحة أودت بكثير من الخونة الذين كانوا يوجهون للحركة الوطنية خناجرهم المميتة،فكان لابد من تصفيتهم أولا ثم الإنتقال إلى أسيادهم،عملا بالمثل الشهير:

-"إن أردت أن تقود ثورة ما فوجه تسع رصاصات للخونة،واحتفظ بواحدة للعدو".

هكذا كان،وهكذا نقلنا إلى سجن "العاذر " بعد جلسات ماراطونية في محاكم كانت توقع مسبقا على حكم الإعدام على كل وطني رفض الخنوع والاستسلام،وفي ذلك السجن الذي صار محشرا لكبار الفدائيين،كتب علينا القدر نهاية ختمت بالدم القاني،ومن سواه دم الحرية الذي خطته دماء حمان الفوطواكي وإدريس الحريزي،ومحمد الحياني ومحمد السلاوي وعلال الأودي وغيرهما من رفاقي،رفاق البدقية والسلاح،وأصدقاء الجهاد والكفاح.

لحظة أيها السائل المتعجب ! إن مررت بتلك البناية الآثمة فتذكر أن هناك دفنت رفاتي،وأن شجاعتي كانت دافعا نحو خاتمتي،لا تتعجب فهناك ما هو أعجب:

-فليس الصعب هو أن تقدم حياتك ثمنا للوطن.

-بل الصعب أن يخيرك القدر بين الفداء والخيانة،فتختار عن جبن الخيار الثاني،فلا أنت تحيى حياة كريمة،ولا أنت يخلدك التاريخ ويخط اسمك بمداد الذهب هذا العابر الذي يربط الماضي بالحاضر...ذاك الذي يسمونه:الزمن.

أيتها الأجيال: تذكروا حينما ترددون اسمي أن هنا ولدت وهنا سأظل شامخا كالجبال

*الحكاية الثالثة عشر:

ابراهيم الروداني:شهيد سوس العالمة

-تارودانت قبل الحماية:

وأنت تيمم وجهك شطر السوس الأقصى،على مشارف سهل منبسط تحيط به جبال الأطلس تستوقفك مدينة ذات أسوار عريقة،كأن المدينة لا تتنفس إلا داخل تلك الجدران التي تخبرك أن للحاضرة السوسية تاريخ ضارب في القدم،وماض عريق لا تزال آثاره شاهده عليه.

أما داخل الأسوار،فإنك ستجد شوارع ذات تنظيم بديع،وأحياء تتميز بالحجم الصغير والأحجار المشذبة والتي تثبت لك بما لا يدع مجالا للشك أنها شيدت قبل عصر الإسمنت بقرون عديدة...إنها تارودانت،المدينة المجاهدة،والحاضرة العريقة ذات الإشعاع الديني الكبير.

المعروف أن تارودانت حاضرة عريقة،وقد طفت على مسرح الأحداث بالمغرب لما شكلت نواة ومستقرا للشرفاء السعديين الذي اتخذوها قاعدة متقدمة لمواجهة الغزو البرتغالي خلال القرن السادس عشر الميلادي،قاعدة سرعان ما انطلق مجاهدوها نحو أغادير أو حصن سانتاكروز بتعبير البرتغاليين الذي سيطروا على المدينة الساحلية وحصنوا مواقعها بأسوارهم المنيعة.

غير أن محمد الشيخ السعدي تمكن في النهاية من هزم البرتغاليين واقتحام قلاع الحصن السوسي نهاية سبتمبر من العام **1541**م،فكان للروادنيين الصدى الأكبر في هذا الفتح الذي شكل البداية الفعلية لنجاح الدعوة السعدية،والتي ستصعد بقواتها شمالا نحو مراكش حيث اتخذت من المدينة الحمراء عاصمة لشرفاء تاكمادرت.

وبعدها ستتسى نسبيا تارودانت بحكم ابتعادها عن مسرح الأحداث التي أقبلت عليها الدولة السعدية في إطار مواجهتها مع البرتغاليين طيلة القرن المذكور،والذي كان ربعه الأخير شاهدا على الملحمة التاريخية والنصر الساحق الذي شارك فيه كل المغاربة وانتهى بالسقوط المدوي لدون سيباستيان في معركة وادي المخازن الشهيرة.

غير أن "مراكش الصغيرة" كما يحلو للبعض تسمية تارودانت،بحكم التشابه الظاهر بين المدينتين على مستوى الموضع المنبسط،والأسوار التي تحيط بالمدينتين،بالإضافة إلى شكل الشوارع واللون الأحمر المنتشر بهما،ستنزوي عن مركز الأحداث وبالخصوص بعد أن زال عنها التهديد الأيبيري إثر استرجاع أغادير،حيث وفر هذا الهدوء منحى آخر للمدينة والذي تمثل في الإشعاع العلمي الذي عرفت به الحاضرة السوسية على مدار تاريخها المجيد.

فقد اشتهر أهل تارودانت بالمدارس العتيقة،حيث أضحت المدينة السوسية مقصدا لطلاب العلم،يقصدونها للتحصيل والمعرفة،بينما تأويهم هي بمدارسها العتيقة،وزواياها الدينية التي تحث على فضائل النفس، وشذ الهمم والعزائم.ولسوف تكون تلك المزايا التي تميزت بها نفوس أهل تارودانت عامل جذب مهم لشخصية تاريخية ستعيد تارودانت مجددا إلى الواجهة النضالية التي عرفت بها،وتميزت بها عن غيرها.

-أحمد الهيبة بتارودانت:

لما تسارعت الخطوب بمغرب القرن العشرين،وأضحى البلد المسلم أرضا للأطماع الأوربية الإمبريالية وسارعت فرنسا وإسبانيا إلى إحكام قبضتيهما على البلاد شمالا وجنوبا،هبت القبائل الصحراوية والسوسية إلى التصدي لهذا العدوان،وما لبث شيخ المقاومين"ماء العينين" أن جمع حوله لفا من القبائل المجاهدة واتجه شملا من مقره بالسمارا،قاصدا الذود عن حاضرة المغرب مدينة فاس.

ولما وصل خبر توقيع السلطان عبد الحفيظ صك الحماية مع الفرنسيين،ثارت ثائرة القبائل وأعلنت رفضها القاطع لهذا العقد المقيت،حينها خطط ابن الشيخ ماء العينين"أحمد الهيبة للتصدي للفرنسيين المتجهين نحو مراكش بمساعدة كبيرة من القايد العيادي والباشا الكلاوي.حيث جرت معركة سيدي بوعثمان على مقربة من مراكش يوم السادس من سبتمبر من العام **1912**م.

كان للخيانة العظمى التي قدمها القواد المتعاونون مع الاستعمار،بالإضافة إلى التفوق التقني للفرنسيين،هذا مع الاختيار السيئ لمكان المعركة وهو السهل المفتوح،كان لذلك كله الوقع الكارثي على جيش الهيبة الذي انهزم في سيدي بوعثمان،وقفل راجعا بقبائله السوسية والصحراوية نحو مرتفعات الأطلس الكبير، حتى يتسنى له إعادة تنظيم صفوفه واستجماع قواته التي أذهلتها المواجهة غير المتكافئة مع العدو المسلح بالحديد والنار وتواطؤ كثير من أهل الدار.

هنا يخبرنا صاحب المعسول المختار السوسي في الجزء **4** من الصفحة **165** قائلا:**"**أما الهيبة فأول ما صنع بعد أن تنفس في تارودانت،أن ولى باشوية المدينة للقايد محمد بن حميدة الهواري،وكان معروفا**...** بالشجاعة وصلابة القناة**...**فرآه أصحاب الهيبة أفضل من يعتمدون عليه،وقبيلة هوارة أعظم القبائل التي تقطن ضواحي المدينة**".**

لم يكن غريبا على أهل تارودانت حس المقاومة والدفاع عن حوزة الوطن والدين،لذا آثر أحمد الهيبة زعيم المقاومة بالجنوب أن يجعل من المدينة مقرا لجهاده ضد الغزاة،وهكذا لبث فيها سبعة أشهر ونصف،كانت مشهودة باللاء الحسن والدفاع المستميث ضد الاستعمار وأذنابه الذين حاصروا المدينة من كل جانب وكانوا الأداة الفعالة التي وظفها الغزاة الفرنسيون ضدا في أبناء وطنهم ودينهم.

وقد كانت فرق كلاوة على رأس تلك القبائل التي وطدت حكم المستعمر الفلرنسي بناء على ثارات قديمة،وطمعا في السيطرة وحب التملك الذي أعمى بصيرتهم وبصيرة الباشا التهامي،هذا الذي ضم إلى حلفه المحاصر لتارودانت كل من قبائل سكتانة وقبائل القايد الكندافي،حينها قرر أحمد الهيبة الانسحاب من تارودانت بعد مواجهات عنيفة مع الجيش الزاحف،بل وتعرضت أسوار المدينة للقصف المدفعي ابتداء من يناير **1913**م،بعدما استبسل الرودانيين في الدفاع عن مدينتهم وأرضهم**..**وهكذا طويت صفحة أحمد الهيبة وخضعت أخيرا هوارة للجيش المتحالف،بينما آثرت تارودانت الانحناء للعاصفة التي اجتاحتها حتى تعيد لم شملها وتواصل طموحها في درب المقاومة والنضال.

-ميلاد ابراهيم الروداني:

في الوقت الذي كان فيه المقاوم أحمد الهيبة يواجه قواد الاستعمار،من داخل أسوار تارودانت كانت القرى المحيطة بالمدينة تقدم له كل صنوف الدعم،متحدية غطرسة المتعاونين وجبرون المحتلين،وفي تلك السنة التي

شهدت توقيع عقد الحماية كان مدشر أيت عـلا البعيـد عـن المدينـة بحـوالي خمسين كلمتر قد استقبل أهاليه مـيلاد بطلنـا ابـراهيم أضياضـو ،والـده أحمـد كان فلاحا علم ابنه شموخ النسر قبل قراءة الكتب،أما جـده فكـان مـن أسـرة المحراث لا من سادة النشب.

في تلك القرية المنعزلة جغرافيا،المحاطة بالجبال نشـأ الصـبي ابـراهيم بـين الصخور التي زادت شخصيته صلابة،وبين وحوش الجبال التي علمته الحذر واليقظة والاعتماد على النفس،كـان يفضـل التـواري خلـف أشـجار الأرغـان التي تزين التلال،وتسبغ على المدشـر البعيـد نوعـا مـن الحمايـة...كان وهـو يشب تتناهى إلى مسامعه ذكريـات النضـال فـي تارودانت،ويسـمع مـن حـين لآخر نفحات طيبة عن سيرة المقاوم أحمد الهيبة.

هكذا نشأ ابراهيم في جو الاحتلال،وسيطرة الباشا الكلاوي على قسـم شاسـع من مغرب الحماية يمتد من مراكش حتى ورزازات،وقد قضى الروداني فترة العشرينيات والثلاثينيات متنقلا بين مدشره والمدينـة النائمـة خلـف أسـوارها الشهيرة،

- تارودانت تقاوم بأرضها وابنها ابراهيم يناضل بعيدا عنها:

-جماعة تارودانت التي أرعبت الغزاة:

في الوقـت الـذي كـان ابـراهيم أضياضـو الرودانـي قـد غـادر سـوس نحـو البيضاء منذ منتصف الأربعينات ،كانت هنـاك خليـة للمقاومة بتارودانـت قـد تشكلت...و لما أطلت الخمسـينيات علـى المغـرب بالأحـداث الجسـام،وزادت سـلطات الحمايـة مـن تحرشـها بالسـلطان،كانت روح الحركـة الوطنيـة قـد انتشرت في صفوف شباب تارودانت انتشار النار في الهشـيم،وما هـي حتـى دبـت أفكـار حـزب الاسـتقلال فـي مخيلتهم،فكثـرت نشـاطاتهم وازداد حماسـهم،وفي نـونبر مـن العـام **1952**م احتفـل شـباب المدينـة بعيـد العـرش اسـتجابة لصـوت الحركـة الوطنيـة،غير أن الإدارة الاسـتعمارية لـم تكـن لتغمض عينها عـن هـذا الـوعي الآخـذ فـي التشكل،فضـربت بيـد مـن حديـد- مسـتغلة صـغر حجـم المدينـة- فاعتقلـت حـوالي عشـرين مـن المقـاومين الرودانيين،كـان منهم شـيخ قبيلـة أولاد يحيـى "الشـيخ موسـى" - وهـي مـن الحالات النادرة في تاريخ المغر أن يعلن مسؤول مخزنـي مولاتـه للمقاومـة وانخراطـه فيهـا- حيـث سـاقت الإدارة الفرنسـية الكـل إلـى سـجن المدينـة وزجـت بهـم هنـاك لتسـكت الأفـواه وتخـرس الألسـن المتعطشـة للحريـة والاستقلال.

وهناك في السجن سيتم التأسيس لخلية تارودانت بعد لقاء الشباب المعتقل مع ابن مدينتهم "مولاي عبد الحفيظ الواتر" هذا الوطني الغيور ذو الحس النضالي الكبير والذي زج به في السجن هو كذلك بعد مشاركته في تظاهرات وجدة إثر اغتيال الزعيم النقابي الشهير فرحات حشاد.وهي رحلة كلفت عبد الحفيظ المرور من ستة وعشرين سجنا حتى الوصول إلى مسقط رأسه مكبلا مغلولا.لتكمل الخلية نشاطها بعد الإفراج عن أعضائها.

وقد استمرت خلية تارودانت في التنسيق مع الحركة الوطنية،ووضع قادتها مخططا لإلقاء قنبلة بفندق تارودانت كلف بتنفيذها إدريس الراجي،وذلك ردا على نفي السلطان محمد بن يوسف إلى مدغشقر في **20** غشت **1953**م،ها ته القنبلة التي أحضرها المقاوم برهان الدين من الدار البيضاء والتي تتغيى الخلية اغتيال القبطان "أوبير" ضابط الشؤون الأهلية بالمدينة السوسية،لكنها للأسف لم يكتب لها أن تخلف أضرارا جسيمة كما أرادت الخلية،لكنها أرعبت سلطات الحماية .

وهكذا تم ألقي القبض على خلية تارودانت بعد تحقيقات مكثفة في **23** نونبر من العام **1954**م،ونالت من التعذيب ما نالته خاصة وأن المشرف على ذلك كان القبطان أوبير نفسه،بعدها رحلت المجموعة إلى أغادير،لتلبث في سجن المدينة حوالي ثلاثة أشهر قبل أن ترحل من جديد نحو مراكش ها ته المرة.

في المدينة الحمراء وفي سجنها بالضبط كتب لخلية تارودانت أن تلاقي رموز المقاومة والفداء،كان على رأسهم الشهيد حمان الفوطواكي،والذي كان معزولا في سجن انفرادي مخصص للمحكومين بالإعدام،حيث سجلت لقاءات عابرة بين أفراد الخلية وحمان حينما كان هذا الأخير يتسلق إحدى الأشجار ويتبادل الحديث الحديث مع رفاق مولاي حفيظ الواتر،وقد كان هناك مقاوم آخر هو مبارك الناجي هذا الذي كان يرعب الفرنسيين وأعوانهم،فعملوا على تكبيله بالسلاسل حتى وهو داخل جدران سجن بولمهارز الرهيب.

وسرعان ما أصدرت الحماية الفرنسية أحكاما ثقيلة على خلية تارودانت،كان منها ثلاثة أحكام إعدام،دون أن يحضر المتهمون لصدور الحكم،بل بلغوا بذلك وهم داخل القضبان،خاصة بعد ترحيل المحامي الفرنسي"شارل لوكران" والذي كان يدافع عنهم بشراسة،غير أن رياحا هبت كانت لصالح تلك الخلية تتمثل في عودة السلطان ابن يوسف من مدغشقر إلى فرنسا تمهيدا لرجوعه إلى عرشه،لذلك تمهلت سلطات الاستعمار في تنفيذ القرار.

وبعد تسعة أشهر بسجن مراكش رحلت المجموعة من جديد نحو القنيطرة هاته المرة،تحت ظروف الانفراج بين الإقامة العامة والحركة الوطنية،حيث خففت ظروف السجن القاسية عن أبناء تارودانت المجاهدين،ولما عاد الملك محمد الخامس إلى الوطن،وأعلن استقلال المغرب،ألغيت أحكام الإعدام على خلية تارودانت،بل وأفرج عنها وإطلاق سراحها،بل واستقبلهم الملك بنفسه وأثنى على تضحياتهم الجسيمة والتي كادت تكلفهم أرواحهم.

-ابراهيم الروداني الأب الروحي للفداء بالبيضاء:

لم يكن غريبا على الفتى ابراهيم أن ينخرط مبكرا في صفوف الحركة الوطنية،وهو البطل الذي ولد في ظل ظروف صعبة من تاريخ المغرب،حيث كان المعمر قد أحكم قبضته على المدينة وسهولها الخصيبة المحيطة بها،كان الفتى وهو يكبر رويدا رويدا يسمع حكايات الجدات التي كانت تقص بكل فخر ملاحم أحمد الهيبة وبطولات هوارة التي لم تستسلم إلا بعد أن نفذت منها كل سبل المقاومة،فيخلق ذاك الحكي في نفس ابراهيم صدى طيب ورغبة جامحة في مواجهة هؤلاء الغزاة الذين استوطنوا أرضه وأرض أجداده بظلم وعدوان.

قلنا أنه لما أطلت الأربعينيات على الشاب ابراهيم،قرر هذا الفتى العصامي الهجرة نحو الدار البيضاء لعلها تكون له مأوى تحقق له طموحاته،وهذا ما حدث بالفعل بعدما وجد الروداني في المدينة العمالية مجالا للانخراط في صفوف الحركة الوطنية،بل وكان ابراهيم-بشهادة الكثيرين-الأب الروحي للمقاومة الحضرية والمجاهد الذي قدم فدائيين أبطال أمثال الزرقطوني والمساعدي،نظرا لما كانت تتميز به شخصيته الفذة من صلابة ووعي وطني.

وقد اشتهر ابراهيم الروداني والتجارة حتى أضحى أشهر رجل أعمال داخل الحركة الوطنية وأعماله الجليلة لا تعد ولا تحصى،تلك التي قدمها لرجالات المقاومة من دعم مادي انطلاقا من محله لبيع جافيل حتى تأسيسه لشركة"لافاسك" لمواد التنظيف،وهي الشركة التي أريد لها أن تنافس الشركات الفرنسية وتستقطب العمالة المغربية،ومنها تنطلق عمليات المقاومة السلمية والمسلحة.

كان واضحا أن ابراهيم الروداني يمتلك ثقافة واسعة،وقدرة هائلة كرجل أعمال ناجح،منذ انخراطه في خلايا حزب الاستقلال في نفس السنة التي قدمت فيها "وثيقةالمطالبة بالاستقلال" في العام **1944**م،مقدما بذلك الدعم المالي لعديد الطلبة المغاربة لكي يكملوا دراستهم العليا ويصبحوا قادة

مؤطرين للحركة الوطنية من أمثال عبدالرحمن اليوسفي وإدريس الفلاح وغيرهم كثير.

الحس النضالي لإبراهيم الروداني تجلى أيضا في انخراطه في العمل النقابي وبالخصوص بعد عودته من فرنسا وقد اضلع عن كثب على أهمية النقابة في الدفاع عن الطبقة العاملة التي كانت تعول عليها الحركة الوطنية كشعلة للثورة ضد المحتل،وفي هذا الصدد يحكي رجالات المقاومة أن الشهيد الروداني هو الذي تدخل من أجل تنصيب المحجوب بن الصديق أمينا عاما للاتحاد الوطني للقواة الشعبية كنقابة قوية أسست لمواجهة الاحتلال بالطرق الأكثر اضرارا به ألا وهي التحكم في الطبقة العاملة وتوجيهها لخوض اضرابات وطنية تشل الاقتصاد الاستعماري من قبيل عمال السكك الحديدية والمناجم.كما كان بيته مقرا للوطنيين ومستودعا للتخطيط لتلك العمليات الفدائية النوعية التي أربكت سلطات الحماية الفرنسية.

وقد عرف عن ابراهيم الروداني أنه كان من أوائل المؤسسين لجيش التحرير في مارس **1955**م،بل كان بيته مقرا تنطلق منه التعليمات التي ستكبد الجيوش الفرنسية والإسبانية خسائر فادحة قبل أن تعلن سلطات الاستعمار عن نيتها في إعادة الملك الشرعي إلى عرشه والتفاوض من أجل منح المغرب استقلاله.

في الحاضرة التي يحمل ابراهيم اسمها"تارودانت" أقيم شارع جميل يخلد ذكرى أب الحركة الوطنية.

-ابراهيم الروداني يسقط شهيدا:

للأسف الشديد لم ينعم هذا البطل الفذ،الذي كان يلقب"الأب الروحي للمقاومة" بمزايا الاستقلال،ولم يعاين عن قرب تحقق ما كان يطمح إليه وهو يحمل مشعل الفداء ضد الغزاة،فقد حدث أن ابراهيم قد تم تكليفه مباشرة بعد عودة محمد الخامس وتحقيق الاستقلال بمهمة جسيمة وهي:
-جمع سلاح المقاومة من المنظمات والمقاومين"
والمعروف أن السلاح كان قد انتشر بشكل كبير قد يهدد حياة المواطنين،ويبث الاضطراب في أوصال الوطن الذي خرج لتوه من عهد احتلال بغيض تسلط عليه ما يقارب النصف قرن،لكن بعض المنظمات التي كانت ترى في حزب الاستقلال عدوا،وبالتالي تعتبر الروداني مناوئا له مثل منظمة الهلال الأسود السيئة الصيت،والتي باشرت جماعتها إلى اغتيال العديد من رؤوس المقاومة،ولم يلبث مؤسسها "..." ومرافقوه ....أن ترصدوا للشهيد الروداني قرب شركته،ولما هم بامتطاء سيارته صوبت له من قريب رصاصات قاتلة،كانت كافية أن تودي بحياته على الفور،في حين مكث شقيقه عابد بضع دقائق قبل أن يسقط هو الآخر صريعا مدرجا في دمائه.
مات ابراهيم بنفس الطريقة التي مات بها رحال المسكيني،كلاهما قدما خدمات جليلة لهذا الوطن،فأبت رياح الغدر إلا أن تودي بحياتهما بعدما عجزت عن ذلك سلطات الحماية،وكلاهما سقطا صريعين بالبيضاء،تلك المدينة التي كانت شاهدة على بطولاتهما ومسيراتهما النضالية في سبيل تحقيق الحرية،كما أن تشابه المصير الذي جمع بين ابراهيم ورحال من حيث طريقة الاغتيال،ومن حيث زمنه لم يكن ليفرق بينهما من حيث محبة أهالي البيضاء لهما.
وقد خرجت ألوف تشيع رحال المسكيني إلى مثواه الأخير،في الوقت الذي غصت شوارع الدارالبيضاء وهي تشيع جنازة الفقيد ابراهيم الروداني،تلك الجنازة المهيبة التي حضرها كبار رجالات المقاومة.
لاشك أن يوم **05** يوليوز **1956**م،سيبقى راسخا في ذهن المغاربة،بعدما شكل هذا اليوم حصول حدث الاغتيال المشئووم في حق بطل المقاومة ابراهيم الروداني،ذاك الاغتيال الذي اهتز له المغرب كما اهتز من قبل لاغتيال رفيق ابراهيم عباس المساعدي قبل أشهر،وقد كتبت الجرائد الفرنسية والمغربية حينها بإسهاب حول تفاصيل الاغتيال،والانتقام من قادة الهلال الأسود حيث شكلت تصفية الروداني بالنسبة لهم آخر عمل تقوم به ها ته المنظمة الرهيبة بعد كمين "عين السبع" الذي أودى بحياة قادتها وبالاتلي طويت صفحتها للأبد.

ولعلنا نكتفي ببعض الشهادات التي كتبت يومها عن حادث الاغتيال الأليم لكي ندرك يقينا تلك المكانة التي كانت لدى ابراهيم في نفوس رفاقه،ونفوس أهالي البيضاء الذين أحبوا الروداني بصدق،وجعلوا اسمه يتردد يوميا بعدما أطلقوه على أحد أكبر شوارعه:"شارع ابراهيم الروداني الكبير":

-جريدة **"Le petit Marocain"** كتبت حينها"إن الهجوم الذي أودى بحياة السيد اضياضو:أحد قادة المنظمة السرية،قد خلف ضحية أخرى أخ السيد اضياضو عابد بن أحمد الذي كان قد أصيب برصاصة في كتفه خلال نفس الهجوم ونقل إلى المستشفى حيث توفي.وبعدها بيومين كتبت جريدة الوقت حينها:"السيد اضياضو قتل لأنه أعلن الحرب على العصابات المسلحة" متحدثة بتفصيل عن حادث الاغتيال ومنفذيه الأربعة،مبرزة خصال الفقيد ومزاياه العديدة.وأنه قرر مع رفاقه وضع حد لمنظمة الهلال الأسود التخريبية والتي تخصصت في الاختطافات والاغتيالات لرموز المقاومة من حزب الاستقلال،لكن يد المنتظمة كانت سباقة إلى عنق ابراهيم قبل أن تقبر نهائيا على يد من أخذوا بثأره.

-جريدة العلم الناطقة باسم حزب الاستقلال كتبت مقالها الأول عن حادث اغتيال أحد أعمدة الحزب تحت عنوان:"فاجعة المغرب في ابراهيم الروداني" مبرزة تفاصيل الحادث،ومتحدثة عن رباطة الجأش التي كانت تميز المغاربة حينها لما تجمع الناس وضحوا بأرواحهم وهم يطاردون المهاجمين و يقبضون على خمسة مسلحين منهم بعد أن أصابوا مواطنا برصاصة قاتلة.

-أما جريدة الطليعة فاختارت عنوانا معبرا،وأكثر وقعا على محبي ابراهيم الروداني حينما كتبت "مات الوالد إبراهيم:

بموته فقد المغرب أحد رجالاته الوطنيين،الذي صدقوا في أهدافهم وما حاذوا عنها_ كان ابراهيم داعيا من دعاة التحرير،وقائدا فذا للحركة الوطنية،شخصية كاريزمية لا تلين،ولا تستكين،كان الروداني وطنيا محبا لبلده،مدافعا عن شعبه،كارها لتلطيخ سمعة المغرب،وسمعة المقاومين الذي ضحوا بالغالي والنفيس من أجل تحقيق حلمهم في الاستقلال،غير أن ذلك جر عليه حقدا دفينا من نفوس ليس عندا في النجاح نصيب،فاغتالته بدم بارد.

وحدها تلك الجنازة المهيبة للشهيد ابراهيم كانت تبرز بما لايدع مجالا للشك أن الرجل كان عظيما،وأن حدث اغتياله كان جسيما،آلاف من المواطنين هبوا للجامع الكبير حيث ستقام صلاة الجنازة،وكذلك غصت الطريق الذي سيشهد موكب الجنازة بالناس،وأغلبهم غير مصدق لما وقع،وكثير منهم كان

لسلن حاله يقول وهو يلقي نظرة أخيـرة لـذاك الجسـد الـذي سـيوارى الثـرى عما قريب في مقبرة ابن مسيك:
-"ما هكذا تكون نهاية رموز الفداء ،وما ذلك لهم بجزاء"..

*الحكاية الرابعة عشر:

رحال المسكيني: علم من ذاكرة المقاومة

(الحكاية مهداة لبني مسكين وفدائييها)

الشهيد رحال،قسمات وجه تدل على معدن الرجال

(الشكر موصول للصديق عبد الله أميدي الذي زودنا بهاته الصور النادرة)

-القبيلة: حيث المولد والنشأة.

"فزالت الشمس ومالت،ثم انهالت وانهارت،في حجر المغيب وانهالت...ونزلنا بإزاء خيام،

استدارت في سنام،قد اشتبكت حبالها،وتراصت جبالها،مدائن دورها شعر،ووقودها بعر،وسورها صدر،قد جاورت بركا ريانة،ومنازل بالأمم ملآنة..وبادر الشيخ فرحب..ولم يقاصر عن طعام نظيف،واحتفال مضيف" .

بهاته العبارات البديعة وضعنا الرحالة والأديب الشهير لسان الدين ابن الخطيب في مجال بني مسكين،ذاك المجال الذي يجاور نهر أم الربيع،وهو النهر الذي لطالما اعتبر حدا طبيعيا فاصلا بين بلاد الشاوية وغيرها من البلاد المجاورة لها.كما شكل عبوره على الدوام حدثا مؤثرا في "حرْكاتْ " المخزن المغربي لإخضاع القبائل الثائرة،وبسط سيطرته على تلك البلاد النائية.

أما ابن الخطيب، فقد سر بحفاوة الترحيب،وكرم الضيافة التي ما فتئت عادة جبلت عليها ساكنة بني مسكين منذ عهود قديمة،حتى اشتهرت المنطقة بإيواء "المْحضْرة طلبة العلم وحملة القرآن" يقدم لهم المأكل والمشرب والمبيت على نفقة أهل الدوار الذي ينتمي له المسجد،مكان العبادة ومربط تسيير شؤون القبيلة.

تلكم هي بني مسكين،قبيلة واسعة المجال،أهلها دائموا الترحال،منذ أن قدموا من المشرق مع القبائل العربية التي ظلت تزحف ببطئ حتى دخلت المغرب الأقصى،ثم استوطنت سهول تادلة، قبل أن تتحرك خيامها المتنقلة لتحط الرحال مجاورة لنهر أم الربيع،جاعلة من النهر المتموج سندا لأمنها،وموردا لشرب ماشيتها التي طافت بشهرتها الآفاق،حيث لا سلالة تسمو على "سلالة الصردي"،ذاك هو قطيع بني مسكين الناصع البياض،إلا من سواد الفم والعينين.

ولعل تلك الماشية الأصيلة ظلت على الدوام أعز ما تهديه القبيلة لضيوفها،وقد طبعت ذاكرتنا ونحن بعد صبيان،عديد الخرفان التي كانت تذبح على شرف الأعيان،أو زوار القبيلة كشرفاء"ولاد سيدي علي" ،حيث تقدم

الأكباش هدية محبة واحترام،وجلبا لبركات الدعاء التي كان "الشريف الناصري" يتمتم بها كل موسم وعام.

وحتى السلاطين والملوك،نالوا حصتهم من مواشي بني مسكين،على مر السنين،ذاك ما أخبرتنا به الباحث حاتم الفساحي في أطروحته الجامعية حول"التنقيب الأثري في بني مسكين" بحيث زودنا بوثيقة نادرة هي عبارة عن رسالة من قائد القبيلة"أحمد بن الشافعي" مرفوعة إلى السلطان العلوي عبد العزيز بتاريخ **27** من ذي القعدة **1319**ه(**1902**م).قبيل أيام على حلول عيد ا لأضحى حينما سير حاكم قصبة دار الشافعي هديته إلى مراكش قائلا:

-"أدام الله العز والتمكين،والنصر والفتح المبين،لسيدنا أمير المؤمنين...وبعد فيوافي حضرة مولانا الشريفة مائتا كبش بالتثنية معلوفة سمينة..معلما عليها بالحناء من جبهها وأعلى رؤوسها..ذلك لأعتاب مولانا الشريفة بحضرة مراكش المحروسة.."

تلك فقط عربون محبة وولاء ظلت تتمسك به القبيلة في فترات طويلة من تاريخها،حتى أن بني مسكين كانت تعد من قبائل المخزن،واستمر أهلها مجددين الطاعة والوفاء،ربما كانت غاياتهم عدم إثارة القلاقل،وركوب الفتن،التي كانت تركبها قبائل كثيرة في زمن أطلق عليه المؤرخون: "زمن السيبة".

ربما هو الولاء الذي جعل السلطان عبد العزيز نفسه يوجه رسالة نصح وتحذير لما علم بالزحف الفرنسي على مجال بني مسكين ،ونية القبيلة في صد العدوان الاستعماري،وفيها يقول"وعلى كل حال فلا يأخذكم هول،ولا يوعكم تشويش فإننا بحول الله...لا نألوا جهدا في صيانتكم والدفاع عنكم.."

-بني مسكين تحت سلطة الغزاة وجبروة القياد:

غير أن رياح الغزو الفرنسي سرعان ما ستعصف بالحامي والمحمي،والاضطرابات التي هزت المغرب مطلع القرن العشرين لم يسلم منها حتى عبد العزيز الذي فقد عرشه لصالح أخيه عبد الحفيظ.هذا الذي لم

يحفظ شروط البيعة التي قيدته بها القبائل الثائرة،فوقع على عقد الحماية،تاركا بني مسكين وغيرها من القبائل تحت رحمة الغزاة وسطوة المحتلين.

إنها الفترة الحالكة من تاريخ المغرب قد أطلت،ومعها فقدت بني مسكين عصرا طويلا من الحرية التي ظلت تتمتع بها،لكن رجال القبيلة وشجعانها لن يرضخوا بسهولة لهذا الأجنبي/النصراني الذي اقتحم عليهم أرضهم،وسلبهم حقولهم،وصادر مواشيهم"رمز فخرهم وافتخارهم"،فكانت قصبة دار الشافعي أولى القلاع التي استشعرت خطر التغيير القادم،فأعلن قائدها "حسن بن الشافعي" أنه لن يعلن الطاعة إلا للمخزن الذي نصبه حاكما كما نصب أجداده.

غير أن سلطة المخزن كانت قد تلاشت،وآلات الغزو الفرنسي في تراب القبيلة قد سادت،فلما حل العام **1914**م حتى دخلت الجيوش الفرنسية "القصبة المسكينية" .فلم تمهل القائد "المتمرد" حتى اقتحمت عليه أسوار قلعته،و صادرت أمواله،ونفته إلى مراكش حيث ظل هناك حتى وفاته بعد سنتين من احتلال بني مسكين.

حينها ستبدأ مرحلة أشد سواد من تاريخ القبيلة،لما سلط الغزاة على الأهالي أحد أعوان الاستعمار،الذي فاق جبروته على المستضعفين أسياده الفرنسيين،ولا تكاد الأدبيات الشعبية والرواية الشفوية تخلوا من ذكر أصناف العذاب،وألوان الخسف التي كال بها "القايد بوحافة" أهل القبيلة حتى أضحى السكان يهمسون سرا أن:

-"دار الحكم بالبروج-التي جعلها القايد مقر حكمه وعز سطوته- تمتلئ جدرانها بجثت المتمردين من بني مسكين".

يحكي أحمد بن الجيلالي أحد رجالات القبيلة عن تلك الحقبة المشؤومة قائلا:"وكا القايد بوحافة يجبرنا على حصاد أرضه(الأرض التي استولى عليها بتواطئ مع الفرنسيين) في عز الظهيرة الحارقة شمسها فصل

الصيف،والذي تزامن مع صيام رمضان..وكثيرا ما اضطر أحدنا لشرب الماء خوفا على حياته،وتجنبا للعطش القاتل".

أما جدي محمد بن العوني فقد حدثت له قصة مع أعوان القايد المذكور،لما مر عليه بعض النصارى وهو في حقله وبجانبه بعض البقرات وثور سمين،أعجب به أحد المعمرين،وما هو إلا زمن يسير حتى حل الأعوان وصادروا الثور من الحظيرة،ولما عاد محمد –وكان في رحلة قنص كعادته- وعلم بالخبر استشاط غضبا،وتعقب الأعوان حتى استرد ماشيته منهم.

كانت تلك البطولة بالنسبة له،أقصى ما مكنته شجاعته من أن يدافع عن عرضه وماله،ومعها وطنه والذي يختزل في مفهوم القرية ،أو أرضه المستباحة،غير أنه كان يدرك أن لبطولته تلك ضريبة غالية قد تعصف بحياته إن وصل الخبر للقائد الطاغية..فكانت تلك الحادثة إيذانا خروج الجد العوني مدة من الزمن نحو أرض العونات بدكالة فرارا من مصير تعس قد يسلطه عليه القايد بعد تمرد ابنه –الطائش -محمد.

هكذا كانت الأوضاع بالقبيلة،لا صوت يعلو على صوت القايد،إنه صوت القياد الذين سلطتهم فرنسا على كل قبائل المغرب بعد أن خولتهم سلطات واسعة،ومنحتهم حق مصادرة أراضي الثوار،أو كل من دافع عن أرضه من الأحرار،إنه زمن القياد الكبار،ذاك الزمن الذي ضربت في رقاب كثيرة،وماتت في سجون قياده أرواح غفيرة،بأحكام تصدر حتما عن مزاج القائد ومصالح بطانته القاسية.

- ميلاد فتى الأقدار بأولاد عامر:

في ذلك الزمن الرتيب،والحكم الرهيب،وبعد مرور اثنا عشر سنة على الوجود الفرنسي وبالضبط في ربيع العام **1926**م،ولد بطلنا رحال،فتى جميل المحيا،نحيف الجسم،عالي الهمم،في قبيلة أولاد عامر المحاذية لمقر سكنى القايد بوحافة ومجال سطوته.

شب الفتى المسكيني –الذي سيلازمه هذا اللقب في حياته ومماته- في ظل ظروف الاحتلال،وإن كان يلمح وهو بعد شاب أن النصارى قلة قليلة،لكن سطوتهم مؤثرة على الأهالي،لأن القايد لا يحكم إلا باسمهم،وما تجبره ذاك إلا بفضل حمايتهم له..هذا الذي طبع مخيلته وهو بعد فتى،فنشأ شديد البغض على عملاء الاستعمار،حريصا على الانتقام منهم حيثما حلت فرصة سانحة.

غير أن قبضة الغزاة وأذنابهم كانت شديدة على القبيلة،بحيث ضاقت على الفتى رحال الأرض بما رحبت،كان يرى الظلام حالكا لا نهار بعده،وروح النضال التي يمتلكها قلبه الصغير قد تودي به،فالأفق مسدود،وضوء التغيير غير موجود،فقررت نفسه الأبية الهجرة إلى أرض قد تنعم عليه بالحرية،لكن أين يجد تلك الأرض والاستعمار قبض البلاد بقبضة حديدية.

-موعد مع الكفاح :

على أن رحال المسكيني وهو بعد طفل يافع قد كان يدرك أن ظروف المدينة قد تكون أفضل من البادية،فعزم على شد الرحال نحو مدينة القنيطرة وهو بعد في سن الواحد والعشرين من عمره،كان ذلك على الأرجح في العام **1947** للميلاد.

وصل رحال إلى "بور ليوطي" هكذا كانت تسمى القنيطرة حينها،مرفأ تجاري يعج بالحركة،أوجدته سلطات الحماية كميناء حديث تصدر فيه خيرات المغرب نحو الميتروبول،بعدما صدرت منه آلاف المغاربة الذي زج بهم في جبهات القتال الوحشية ضد النازية،هناك في جبال الألب ومنخفضات الراين..كان ذاك قبل ست سنوات من وصول رحال للميناء لما كانت الحرب العاليمة الثانية تعصف بأبناء المستعمرات أكثر من الأوربيين أهل الحرب ومفجريها.

وحتى لما وجد الفتى المسكيني مستقرا له بالقنيطرة،جمعه القدر برفيق سلاح من نوع نادر،إنه الشهيد إبراهيم الروداني ،وقد أسس الرفيقان خلية للمقاومة أسموها"المنظمة السرية" التي سترعب الوجود الفرنسي منذ تأسيسها حتى خروج المعمر من أرض المغرب أواخر **1955** للميلاد..كما

تزامن وجود رحال المسكيني مع حدث كبير سيربط حياته بالهدف الذي ربما هاجر بسببه قبيلته البعيدة،كان ذاك :

-"زيارة السلطان ابن يوسف لطنجة".

إنها الرحلة التي أراد لها السلطان أن تكون برية وبالقطار،حتى يكسر ولو رمزيا تقسيم بلده إلى ثلاث مناطق استعمار،وفيها أيضا سيلقي خطابه الذي سيرمي به الإقامة العامة بوابل من النبال المسمومة أصابتها بالجنون،فعملت على تدبير مؤامرة دنيئة في حق الأبرياء من ساكنة البيضاء.. الحادثة التي صارت تعرف في الأدبيات الشعبية ب"ضربة ساليغان".

في هذا الجو المشحون،تلقت مسامع الفتى المسكيني أحاديث عن نشاط خلايا حزب الاستقلال فسارع غلى الانخراط في صفوف الحزب الذي طفقت شهرته الآفاق منذ تقديمه لعريضة المطالبة بالاستقلال في العام **1944**م.وقد كانت لروحه الثائرة،وسجيته السليمة التي تتغنى بحب الوطن،وتدين بالطاعة للسلطان –كما هي عادة قبيلته من غابر الأزمان..كما أن حماس الشباب كانت تدلل له طرق الصعاب.فكلف رحال بالسهر على تنظيم العمل النقابي بين مدينتي القنيطرة والبيضاء،حيث ظل يتنقل بينهما،يوحد صفوف المناضلين وينظم وحدات الفداء.

بعد حادث اغتيال الزعيم التونسي فرحات حشاد،ثارت شمال إفريقيا،ومعها خرجت جحاف العمال في عديد المدن،كانت أهمها المدينة العمالية"الدار البيضاء" تلك المدينة المقاومة والتي انتقل إليها بطلنا رحال المسكيني في نفس العام الذي شهد اغتيال الفرنسيين لفرحات،وهكذا وجد المسكيني نفسه في العام **1952** للميلاد مدعوا للجهاد.

إنها الفترة التي سيسطع فيها نجم فدائيين أبطال،سخروا حياتهم لركوب الأهوال،وسقط العديد منهم شهداء بعدما طالتهم يد الغزاة أو وشت بهم عين من أعين الخزنة الجبناء:

-فهذا علال يحاول في عملية بطولية اغتيال ابن عرفة صنيعة الاحتلال.

-وذاك حسن الصغير ينفذ عملياته الفدائية ثم يقضي شهيدا بعد أن حاصرته الأغلال.

-أما الزرقطوني فاختار ابتلاع السم كرفيقه حسن،حتى يقد للفرنسيين كنزا من" اعترافات وأقوال".

حينها أدرك رحال المسكيني أن قيادات خلايا الفداء تتساقط تباعا في يد المستعمر،وأن سبب ذلك يعود بالأساس لتعامل الخونة المغاربة،فأعلنها عليهم حربا شعواء،وقرر نقل ساحة حربه معهم إلى المجال الذي يعرفه جيدا:"البادية".

وهكذا عمل المسكيني بمعية رفاقه على نقل العمليات الفدائية نحو الشاوية موطن قبيلته،التي ظل من حين لآخر يختبئ في حضنها لما تشتد عليه مطاردة البوليس الفرنسي عقب كل عملية ناجحة يدبرها بالخصوص في "المذاكرة" التي اتخذا مقرا لهجماته البطولية حيث شن عشرات المداهمات لضيعات المعمرين والمغاربة الخونة،يضرم فيها النار حينا،ويطلق الرصاص على رؤوس الاستعمار وأذنابهم حينا آخر.

كان رحال المسكيني رجل سلاح بامتياز،لا يكاد يفارقه مسدسه،وحيثما سنحت الفرصة انقض على الأعداء كنسر كاسر في جو السماء،إنه أضحى كأحمد الحنصالي يقتنص المعمرين والمتهاونين على حد سواء،حتى زعزع أركان الاستعمار،وأضحى المطلوب الرئيسي في المذاكرة وأولاد حريز وعموم الشاوية،وسرعان ما ستجمع عنه سلطات الاحتلال ما يلزمها من أخبار،قصد القبض على هذا الثائر الجبار.

-قصة فرار تتكرر:

ذلك ما حدث بالفعل في ربيع **1954**م لما ألقي القبض على الفتى رحال،بمجال المذاكرة رفقة أحد رفاقه،حيث اعتقل بدار الأمن مدة أرعين يوما،تخللتها جلسات تعذيب مطولة،غير أن رحال كان من طينة حمان،فلم

يعترف للجلادين بأسماء رفاقه،ولم يطلعهم على أسراره،بل إن رحال "رجل الأقدار"سيكتب صفحات مشرقة مع الفرار:

-ففي الوقت الذي كان يموه البوليس الفرنسي بأنه يعترف لهم بمكان تنفيذ عملية من عملياته الفدائية،كان يرتب هروبه من سيارة الجيب التي كانت تقله بمعية قاضي التحقيق،فما هي إلا غافل رجال الأمن وأطلق ساقيه للريح،مختبئا في أكمات الضيعة التي يعرف مسالكها أكثر من غيره.

-معركة جاقمة:حكاية فارسين نبيلين.

إنها تلك المعركة التي لا تشبه كل المعارك،هي أشبه بعملية مطاردة رهيبة نفذها البوليس الفرنسي على رحال المسكيني ورفيق دربه العربي المزمزي،يوم الثامن من يناير **1955**م،حيث انطلقت المطاردة من رأس العين إثر عملية فدائية استهدفت خلية المركز الأمني للقيادة،والتي على إثرها أصيب رحال،فعملت وحدات البوليس الفرنسي على قطع الطريق عن المجاهدين حتى لا يصلا للبيضاء،بعد أن علمت أن العربي ورحال حصلا على فرسين قد يفران بهما نحو وجهة مجهولة لا تعلمها عيون المخبرين ولا إدارة المحتلين.. ألم نقل إنها معركة لا كباقي المعارك؟؟

تخيل سيارة تجيب عصرية،يركبها رجال أمن مسلحون بعيارات نارية حديثة،تطارد رجلين على صهوتي جوادهما،كأنهما فارسين عادا لتوهما من زمن القرون الوسطى،بدا الفارسان وهما يسابقان الريح على جواديهما الأصيلين،كأن الزمن توقف بهما وهما يلمحان من بعيد سيارة المطاردة،بينما يحثان الفرسين على التقدم بأقصى سرعة ممكنة،حتى يفلتا من المطاردة..غير أن وحدات قياس الزمن وكذلك السرعة بدت مختلة تماما،بين مركبة عصرية وفرسين –قرووسطيين-إنها الملحمة التي شهدتها سهول الشاوية،وأضحت حكايات عجائب مروية.

تصل حكاية "الفارسيين العربي ورحال" نهايتها بمشهد بطولي سوريالي،حينما تاها البطلين عن وجهتما المقصودة"ضيعة الحاج العربي ولد الحكيم" وحينها حاصرهم درك ابن احمد والكارة وبرشيد.ترجل الفارسان

وأخرج العربي مسدسه وطلب من رفيقه رحال أن يقوم كل واحد بإطلاق النار على صاحبه حتى ينجوا من التعذيب المميت،غير أن رحال لم يقبل بمقترح صديقه،وهان عليه إطلاق الرصاص على رأس من جمعته به أروع أيام البطولة،تلك هي حقا شيم الفارس النبيل.. لكن العربي أسر على موقفه،وفي غفلة من رحال أفرغ المزمزي رصاصته في رأسه،ليسقط حينها شهيد الواجب.

أسدل الستار على مشهد الفارسين النبيلين،العربي والذي بدا أنه اختار ميتة "فرسان الساموراي اليابانية الشهيرة" ،صريعا مدرجا في دماءه بجانبه حصانه الذي فضل الوقوف شامخا بجانبه،أما الفارس المسكيني فقد استوى واقفا ممسكا عنان فرسه،وهو ينظر بأسى على فقد رفيق عزيز،بينما سيارات التجيب المطاردة تطلق صفاراتها المرعبة وهي تستعد لتطوق مسرح المعركة غير المتكافئة الأطراف.

باغتت الصدمة رحال الذي ظل مشدوها لهول مارأى،وظل كذلك إلى أن ألقى عليه البوليس الفرنسي القبض،واقتيد مكبلا إلى السجن الرهيب ،بعدما ظل يمثل تهديدا حقيقيا لكل متعاون، تمكنت سلطات الحماية من اعتقاله ،حيث نقل على جناح السرعة إلى سجن القنيطرة تمهيدا لتنفيذ حكم سريع بالموت على هذا الفدائي الشجاع الذي روع الغزاة كما روع أذنابهم.بعدما أحصت الإقامة العامة أكثر من سبعة عشر عملية فدائية في حياة هذا البطل القصيرة..

-ومرة أخرى يدبر رحال المسكيني عملية فرار ناجحة من السجن الرهيب،في منتصف العام **1955**م بعد قضائه مدة حبس قاسية،ولما فر من أسوار السجن العالية اختار الهجرة نحو الصحراء، بعدما أضحى رأسه مطلوبا ودمه مهدورا في منطقة الحماية الفرنسية،ثم إن القبضة الإسبانية في الجنوب البعيد كانت متراخية نسبيا،جعلت العديد من الفدائيين يختارونها وجهة للاختباء،كشأن سعيد بونعيلات وغيره كثير...

وقد كتب لرحال عمر جديد،سيهبه في سبيل غايته القصوى:"رؤية بلده وقد حقق حريته واستقلاله،وعودة السلطان الشرعي من منفاه بمجاهل إفريقيا".لذا سرعان ما التقى برفاق الفداء وساهم في تأسيس جيش التحرير الوطني الذي سيكبد المعمرين الفرنسي والإسبان أشد الخسائر الفادحة ،وستعلن عملياته النوعية عن رضوخ الغزاة لمطالب الوطنيين وانتصار الفدائيين.

على مقربة من أولاد عامر شيدت هاته المؤسسة التعليمية لتذكر بني مسكين بفدائيهم الشهيد.

-يد الغدر تحيك في الظلام:

غير أن المقاوم المسكيني لم يكن ليشهد على رؤية مغرب الحرية التي وهب حياته وشبابه من أجلها،بعدما تقدمت له يد الغدر الممزوجة بروح الانتقام والثأر،لا لشيء إلا لكون رحال كان ذا نفس أبية،لا ترضى برؤية الخونة وأذناب الاستعمار وقد أضحت لهم حظوة في مغرب الاستقلال،كتلك التي كانت لهم عهد أسيادهم الفرنسيين.

أبت نفسية رحال السكوت عن تطاول هؤلاء الأذناب،وكان على رأسهم المدعو"أحمد الطويل" هذا الذي انتحل بطاقة تضمنت حصوله على

صفة"مقاوم" وهو الخائن الذي قضى عللى عشرات الفدائيين في دائرة الأمن بالبيضاء.فترصد له رحال بشارع عبد المومن وما لبث أن أفرغ في رأسه ما تبقى من رصاصات مسدسه الذي يكاد لا يفارقه.

بعد أيام على هذا الحادث ترصدت فرقة من الهلال الأسود التي أرادت الانتقام للطويل الهالك

لتندلع عملية إطلاق النار على الفدائي رحال،هذا الذي لم يستسلم كعادته،بل دافع عن نفسه وقضى على المامون أخ الطويل،وجرح مسلحا آخر،غير أن رصاصة مصوبة من المعتدين لم تكن لتخطئه ها المرة ،فسقط شهيدا فوق تراب المدينة التي دافع عنها وهو بعد حي،ليقابله سكانها بالحزن والأسى وهو يشيعون بالآلاف جثمان هذا البطل في موكب جنازة مهيب،في يومه السادس عشر من فبراير من العام **1956**م.

ستختفي أسماء العشرات من المتعاونين وأتباع الاستعمار،وسيرحل كثير منهم غير مأسوف عليهم،بعد أن اقترنت أسماءهم بالعار والخيانة،أما اسم "رحال" فلا يكاد دوار من دواوير بني مسكين من هذا الاسم-الرمز،ولعمري لهذا خير الاحتفاء بهذا الفدائي رمز النضال والوفاء.

أخيرا آن لك أن تترجل عن صهوة الحياة يا رحال.

وطني مخلص،لم تضعف عزيمته قبضة الاحتلال.

غادر رحال المسكيني،شهيدا كما يغادر أروع الأبطال.

وإننا لنفخر بشرف الانتماء معك يا سيد الرجال.

الفهرست:

*الحكايـــــــــــــــة الأولى:الشـــــــــــــــــــريف محمـــــــــــــد أمزيان.......................................ص**05**

*الحكايــة الثانيــة:موحى أوحمــو الزيــاني...ص**13**

*الحكاية الثالثة:يطو شهيدة زيان... ص **25**

*الحكايـــــــــــــــــــــــة الرابعة:زايـــــــــــــــــــــــــد أسكونتي...ص**31**

*الحكاية الخامسة: عدجو موح...ص**44**

*الحكاية السادسة:زايد أوحماد...ص**52**

*الحكاية السابعة:أحمد الحنصالي...ص**66**

*الحكاية الثامنة:علال بن عبد الله...ص**71**

*الحكاية التاسعة:محمد الزرقطوني..ص**81**

*الحكاية العاشرة:حمان الفوطواكي...ص**91**

*الحكاية الحادية عشر:إدريس الحريزي...ص**100**

*الحكاية الثانية عشر: عبد الله الشفشاوني..................................ص**105**

*الحكاية الثالثة عشر:ابراهيم الروداني...ص**109**

*الحكاية الرابعة عشر:رحال المسكيني...ص**117**